فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي
من خلال رحلات الحج
من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين

إعداد

د. بنعيسى بويوزان

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

١- توطئـــة :

درج البــاحثون و الدارســـون علـــى اعتبـــار رحـــلات الحـــج أندلـــسية المولـد و النـشأة والاكتمـال علـى الوجـه الـذي نـراه عليهـا اليـوم، مـن بعـد مـا قطعـت قرونـا مـن الزمـان تـداولتها خلالهـا أيـدي النـاس بحثـا و قـراءة واسـتمتاعا و انتفاعـا، حتـى إن العـالِم يومئـذ لا يكـاد تخْلَـع عليـه صـفة العالِمية إلا إذا أضيف إلى ألقابه و صفاته اسم " الرحالة " أو " الرُّحَلَة ".

و مـا دامـت عـدوة الأنـدلس يومئـذ علـى صـلة وثيقـة بعـدوة المغـرب علـــى كـــل الأصـــعدة، ابتـــداء مـــن أبـــسط شـــؤون الحيـــاة اليوميـــة إلى أعقـدها، و بخاصـة مـا يتعلـق بـالأمور الـسياسية والعـسكرية، فإن تـدوين رحـلات الحـج قـد انتقـل في ظـرف وجيـز جـدا إلى المغاربـة، فـضربوا فيهـا بـسهم وافـر، و اسـتمروا علـى ذلـك آمـادا طويلـة حتـى بعـد سـقوط الأندلس.

و لكـن أزهـى مرحلـة في تـاريخ رحـلات الحـج علـى الإطـلاق هـي تلـك الـتي كانـت إبـان القـرنين الـسابع و الثـامن الهجـريين، حـين عـرف الغـرب الإسـلامي أرقـى مراحلـه العلميـة و الثقافيـة و الفكريـة علـى عهـد بـني مـرين في عـدوة المغـرب، و دولـتهم هـي رابـع دولـة حكمـت المغـرب الأقـصى حيـث وصـلت الحـضارة الإسـلامية إلى قمتهـا و بخاصـة علـى عهـد أبـي الحـسن المـريني و ابنـه أبـي عنـان، و علـى عهـد بـني الأحمـر في عـدوة الأنـدلس و دولـتهم هـي آخـر دولـة إسـلامية بهـذه الجزيـرة، و قـد اسـترجعت الحـضارة الإسـلامية في هـذا العهـد بعـض عافيتهـا و بخاصـة علـى عهـد أبـي الحجـاج يوسـف الأول و ابنـه محمـد الخـامس الملقـب بـالغني

باالله في ولايتيه الأولى و الثانية ، وكأني بهذا الرقي العلمي المتميز في الغرب الإسلامي كله قد جاء نتيجة و انعكاسا لهذه الرحلات إلى المشرق، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كما سيظهر لنا جليا بعد حين .

لذلك آثرت – في الغالب – أن تكون الرحلات التي سأتناولها في هذه المداخلة منتمية إلى هذه المرحلة بالذات، لأنها رحلات أسست فعلا لمرحلة علمية جديدة في الغرب الإسلامي، فقد مهد أصحابها مع تلاميذهم لعهد جديد عرف معه المغرب و الأندلس نهضة علمية أشرقت بشمسها لا على هذا الجناح الغربي من الأمة الإسلامية فحسب، و إنما على كافة أرجائها . و لولا التخاذل السياسي الذي كان أَوْهَى مَغَامِزِ الغرب الإسلامي يومئذ ، و بخاصة في المراحل المتأخرة من تاريخ الأندلس مما نتج عنه ضياعها وانطفاء جذوة الإسلام منها ، لكان واقع المسلمين غير ما نراه اليوم، ولكن الله يفعل ما يريد .

و هذه الرحلات التي سأتناولها هي ثمانية نماذج، أربعة من الأندلس و مثلها من المغرب، فأما الرحلات الأندلسية فهي : رحلة أبي بكر بن العربي المعافري ت ٥٤٣ هـ، و رحلة ابن جبير ت ٦١٤ هـ، ورحلة خالد بن عيسى البلوي ت ٧٦٠ هـ أو ٧٨٠ هـ، و رحلة القلصادي ت ٨٩١ هـ .

و أما الرحلات المغربية فهي : رحلة العبدري ت ٧٠٠ هـ، ورحلة ابن رُشَيْد السبتي ت ٧٢١ هـ، و رحلة أبي القاسم التجيبي ت ٧٣٠ هـ،

و رحلة ابن بطوطة ت ٧٧٩ هـ .

و يلاحظ أنها رحلات تغطي مرحلة زمنية واحدة تقريبا سواء في المغرب أم في الأندلس – و إن كانت رحلة القلصادي قد تأخرت بنحو ما يزيد عن قرن من الزمان عن رحلة ابن بطوطة – مما يسمح لنا بإدراك النتائج العلمية المترتبة عنها في العدوتين كليهما .

٢ – رحلات الحج : تسميتها و دوافعها .

و إذا كان أولئك الدارسون لا يختلفون حول مولد هذه الرحلات و نشأتها كما سبق، فإنهم يختلفون فيما سوى ذلك، فهم يختلفون اختلافا بسيطا في تسميتها، بينما يختلفون اختلافا شديدا في بواعثها و أسبابها، و بالتالي في عواقبها و نتائجها، خاصة و أن بعض هؤلاء الدارسين ينطلق في نظرته إلى هذه الرحلات من منطلقات فكرية و عَقَدِية أحيانا كما سيأتي بيانه في حينه إن شاء الله .

أ – تسميتها :

ففيما يتعلق بتسمية هذه الرحلات فإن المغاربة جلهم ممن تناولها بالدرس و التحليل والتأْريخ درجوا على تسميتها بالرحلات الحجازية [(١)] جريا على ما ذهب إليه المغاربة والأندلسيون قديما حين كانوا ينصُّون في بداية رحلاتهم على أن نواياهم منها هي " الوجهة

(١) مثل الدكتور عباس الجراري و محمد المنوني و الدكتور محمد بنشقرون و الدكتور عبد العزيز بن عبد الله و الحسن السائح و محمد الفاسي و الدكتور محمد بنشريفة ، و سواهم ممن سأحيل على مؤلفاتهم واحداً واحداً خلال هذه المداخلة إن شاء الله تعالى

الحجازية " بغرض حج بيت الله الحرام و زيارة المدينة المنورة، و السلام على الرسول صلى الله عليه و سلم، بل إنهم أحيانا كانوا يصرحون بتسمية " الرحلة الحجازية "، كما سنرى مع خالد بن عيسى البلوي بعد قليل، غير أن هناك من المغاربة من خرج عن هذا العرف في التسمية – و هم قلة قليلة – مثل الدكتور سعيد بنسعيد العلوي حيث أطلق عليها اسم " الرحلة الْحَجِّيَّة " [(١)]، و هذا التركيب ما هو إلا تحوير بسيط للتسمية التي عنْوَنَ بها الشيخ العلامة حمد الجاسر موسوعته " أشهر رحلات الحج " الصادرة عن دار الرفاعي بالمملكة العربية السعودية .

ب – دوافعها :

١ – الحج أولا :

و مهما يكن فإن التسمية أيّاً كانت صيغتها فإنها لا تطرح مشكلا و لا تثير جدلا، بالقياس إلى ما تثيره الدوافع و العلل من هذه الرحلات – و هو ما يدخل في صميم هذه المداخلة –، ذلك أن بعض الباحثين مشارقة و مغاربة يبحثون من تلقاء أنفسهم عن العلل والدوافع التي حملت هؤلاء الرحالين المغاربة و الأندلسيين على القيام برحلاتهم تلك ؛ و لا يلتزمون بما نص عليه هؤلاء الرحالون أنفسهم بصريح العبارة في مقدمات رحلاتهم، أو في ثناياها و بخاصة عند إشرافهم

(١) الرحالة العرب و المسلمون – اكتشاف الآخر ، المغرب منطلقا و موئلا ، أعمال ندوة ، منشورات وزارة الثقافة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ ، ص : ١٨.

علـى مكـة المكرمـة لمـن اختـار طريـق مـصر ليجتـاز البحـر الأحمـر نحـو جـدة، أو عنـد إقبـالهم علـى المدينـة المنـورة لمـن اختـار طريـق الـشام، فتكون الزيارة أولا ثم بعد ذلك أداء المناسك في أشهر الحج .

فـأبو بكـر بـن العربـي يقـول أثنـاء مقامـه في بيـت المقـدس للأخـذ عـن علمائـه في طريقـه إلى الحـج : " فقلـت لأبـي رحمـة الله عليـه : إن كانـت لـك نيـة في الحـج فـامض لعزمـك، فـإني لـست بـرائم عـن هـذه البلـدة حتـى أعلـم عِلْـم مـن فيهـا و أجعـل ذلـك دسـتورا للعلـم، و سـلَّما إلى مراقيهـا ." ، [1] و قـد كانـت بدايـة رحلتـه يـوم الأحـد مـستهل ربيـع الأول مـن عـام ٤٨٥ للـهجرة، كمـا نجـد ابـن جـبير يقـول أيـضا :" كـان انفـصال أحمـد بـن حـسان و محمـد بـن جـبير مـن غرناطـة حرسـها الله للنيـة الحجازيـة المباركـة قرنهـا الله بالتيـسير و التـسهيل، و تعريـف الـصنع

(١) قانون التأويل ، دراسة وتحقيق محمد السليماني ، دار الغرب الإســـلامي ، الطبعة الثانية ١٩٩٠ ، ص :٩٢ ، و قد كتب الدكتور عز الدين عمر موسى دراسة قيِّمة للغاية عن رحلة أبي بكر بن العربي تحت عنوان :" الرحلات الأندلسية و التواصل الحضاري : القاضي أبو بكر بن العربي نموذجا " نشرت في مجلة " العرب "على خمس حلقات ابتداء من الجزء ١ و ٢ ، السنة ٣٨ ،رجب و شعبان ١٤٢٣ هـ ، أيلول ، تشرين أول / سبتمبر ، أكتوبر ٢٠٠٢ ، إلا أن من بين ما قاله عن ابن العربي " ولهذا لا يستبعد أن يتخذ الحج ستارا "، ص ١٤٣ ، من الجزء ٣و٤ ، و ليته ما فعل ، لأن النية والقصد الأول لدى ابن العربي و سواه ، هو الحج ثم طلب العلم بعد ذلك ، و سيأتي بيان ذلك في حينه إن شاء الله تعالى. و راجع أيضا ما أثير من خلاف حول الأسباب التي كانت وراء رحلة ابن العربي في مقال للدكتور عصمت دندش ، عنوانه " دراسة حول رسائل ابن العربي ، و التي تسمى برحلة أبي بكر بن العربي " ، مجلة المناهل المغربية ، العدد ٩ السنة الرابعة ، يوليوز ١٩٧٧ ، و راجع أيضا نقاشا مماثلا أورده الدكتور حسين مؤنس ف كتابه " تاريخ الجغرافية و الجغرافيين العرب في الأندلس " الصادر عن مكتبة مدبولي ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ ، ص ٤٠٨ و ما بعدها

الجميل ."،[(١)] و بداية رحلته كانت صباح يوم الخميس ٨ شوال ٥٧٨ للهجرة، ويقول العبدري :" و بعد، فإني قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، و رسم ما تيسر رسمه و تسديده، مما سما إليه الناظر المطرِق، في حين الرحلة إلى بلاد المشرق ." [(٢)]، وكانت بداية رحلته عام ٦٨٨ للهجرة، و الرحلة إلى " الشرق كانت تعني الحج بالأساس، إذ المتعارف عند المغاربة إلى الآن، أنهم يقولون : ذهب إلى الشرق، و يعنون تأدية فريضة الحج، فالهدف الأول من الذهاب إلى الشرق هو الحج و زيارة البقاع المقدسة ." .[(٣)]

و قال ابن رشيد السبتي :" و لما أنعم الله سبحانه بتيسير الغرض من هذا التقييد الذي تسَنَّى ببركة التوجيه لأداء المفترض ..."،[(٤)] و بداية رحلته كانت عام ٦٨٣ للهجرة، كما يقول أبو القاسم التجيبي مجيبا حين سأله ابن دقيق العيد عن وجهته عند التقائهما في القاهرة :" و سألني عن جهة قصدي، فأخبرته أن معظم

---

(١) رحلة ابن جبير ، تحقيق د . حسين نصار ، مكتبة مصر ١٩٩٢ .ص :٢١ . و هذا الرفيق الذي أشار إليه ابن جبير، و كان معه في رحلته ، هو أحمد بن حسان القضاعي توفي عام ٥٩٨ أو ٥٩٩ هـ بمراكش.

(٢) رحلة العبدري المسماة :"الرحلة المغربية " ، تحقيق و تقديم : محمد الفاسي ، طبعة ١٩٦٨ ، ص : ١.

(٣) أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ، د .الحسن الشاهدي ، منشورات عكاظ ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ ،ج١ ص ٦٩.

(٤) رحلة ابن رشيد السبتي ، دراسة و تحليل ،د. أحمد حدادي، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية – المغرب .١٤٢٤هـ ٢٠٠٣، ج١ ص ٢٣٧.

أملـي الوصـول إلى بيـت الله الحـرام لأداء فريـضة الحـج، جعـل الله ذلـك خالـصا لوجهـه الكـريم ." ،[(١)] و قـد كانـت بدايـة رحلتـه عـام ٦٩٤ أو عـام ٦٩٦ للـهجرة، و يقـول خالـد بـن عيـسى البلـوي : " اَلحمـد لله الـذي فـرض حـج البيـت علـى مـن اسـتطاع إليـه سـبيلا .. هـذا تقييـد أطْلَعَـه عَـوْنٌ مـن الله و تأييـد، قـصدت بـه ضـبط مـوارد الرحلـة الحجازيـة، و ذكـر معاهـد الوجهـة المشرقية، جعلـها الله تعـالى في ذاتـه وبتغـاء مرضـاته بِمَنِّـه و كرمـه ." ،[(٢)] و بدايـة رحلتـه كانـت يـوم الأحـد ٧ جمـادى الأولى عـام ٧٣٥ للـهجرة، و يقـول ابـن بطوطـة :" و كـان خروجـي مـن طنجـة مـسقط رأسـي في يـوم الخمـيس مـن شـهر الله رجـب الفـرد عـام خمـسة و عـشرين و سـبعمائة، معتمـدا حـج بيـت الله الحـرام ." ،[(٣)] و يقـول القلـصادي أخـيرا : " اَلحمـد لله الـذي جعـل طلـب العلـم واجبـا علـى الـبعض مـن المـسلمين، فقـال تعـالى وهـو أصـدق القـائلين :"" فَلَـوْلا نَفَـرَ مِـنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِـنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِـي الـدِّين ."" التوبـة، الآيـة : ١٢٢، و فـرض الحـج علـى المـستطيع مـن المـؤمنين و ألـزمهم التكـاليف حُجـة عليهـم ودلـيلا، فقـال سـبحانه و تعـالى :"" وَ لِلَّـهِ عَلَـى النَّـاسِ حِـجُّ الْبَيْـتِ مَـنْ اسْـتَطَاعَ إِلَيْـهِ سَـبِيلا "" آل عمـران، الآيـة : ٩٧، ثـم سُـنَّتِ العمـرة و زيـارة نبيـه عليـه الـصلاة

---

(١) مستفاد الرحلة و الاغتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ليبيا – تونس ١٣٩٥ – ١٩٧٥ .ص.٢٠.

(٢) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسن السائح ، مطبعة فضالة – المحمدية – المغرب،بدون تاريخ ،ج١ ص :١٤١ – ١٤٢.

(٣) تحفة النظار في غرائب الأمصار ، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة الرابعة ١٩٨٥ ، ج١ ص٣٠.

والسلام تشريفا له و تعظيما ، و رحمة لأمته و تكريما ، فله الشكر على ما أولانا من جزيل الآلاء، وخصنا به من سوابغ النعماء وصرف عنّا من مواقع اللأواء ." (١) و كانت بداية رحلته عام ٨٤٠ للهجرة .

فيتضح جليا بأن هؤلاء الرحالين ممن اخترنا لهم هذه النماذج للاعتماد عليها في هذه المداخلة، و سواهم كثير جدا (٢) ، ينصُّون صراحة على أن الغرض من رحلاتهم إلى المشرق هو الحج إلى بيت الله الحرام، له أخلصوا نواياهم و إليه شدوا رحالهم، و عليه عقدوا عزائمهم و مقاصدهم، و منهم من تاقت نفسه إلى الحج فرحل مرات عدة لأدائه رغم بعد المسافة وشحط المزار بين المغرب والمشرق، فهذا

(١) رحلة القلصادي ،دراسة وتحقيق ،محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للنشر ،تونس ١٩٧٨ ص :٨١.

(٢) أقول هذا لأن حصر هذه الرحلات أقرب إلى المحال منه إلى أي شيء آخر، قال المقري:" اِعْلَمْ جعلني الله تعالى و إياك ممن له للمذهب الحق انتحال ،أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه و لا حال ، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علاّم الغيوب الشديد المِحال ، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب و كَثُرَ الكلام ." نفح الطيب ،تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، طبعة ١٣٨٨ – ١٩٦٨ ، ج٢ ص ٥.و قد أورد الدكتور عبد العزيز بن عبد الله مجموعة مفصلة من الرحلات الحجازية مخطوطة و مطبوعة في كتابه :" الرحلات من المغرب و إليه عبر التاريخ " ، دار نشر المعرفة ، الرباط الطبعة الأولى ٢٠٠١ ، ص ٤٥ و ما بعدها ، و راجع قائمة وافية أيضا بالرحلات الحجازية في المقدمة التي قدم بها الحسن السائح لتحقيقه لرحلة البلوي ج١ص٥٦ وما بعدها ، و راجع قائمة طويلة لهذه الرحلات الحجازية التي استمرت في المغرب إلى حدود عام ١٣٥٥ هـ مع رحلة أحمد بن محمد الرهوني ، و قد أوردها الدكتور عباس الجراري في دراسة له عن رحلة الحضيكي الحجازية ، نشرت في مجلة " المناهل " المغربية ، العدد ١٠ السنة الرابعة ١٩٧٧.

ابن جبير قام " بثلاث رحلات قصد فيها جميعها الحج الذي كان مقصد جل الراحلين من المغرب إلى المشرق إن لم نقل كلهم ." ،(١) أما ابن بطوطة فكلما انفصل عن البلد الحرام متجولا في البلاد الإسلامية، تاقت نفسه إلى العودة إلى مكة المكرمة للحج، حتى حج ست أو سبع مرات.(٢)

و عليه فليس صحيحا ما يتردد الآن و بخاصة في الدراسات التي تناولت رحلات الحج و سواها من الرحلات، والتي صدرت في السنين الأخيرة، من أن الغاية من هذه الرحلات هو البحث عن المجهول، أو " الغرائبي و العجائبي " أو بهدف " الفرجة " أو غير ذلك من التسميات التي جانب فيها أصحابها الصواب، بل إن بعضهم أسهب في ذكر أسباب مختلفة دفعت الرحالين إلى الرحلة، لكنه لا يشير لا من قريب و لا من بعيد إلى أن المقصد الأعظم هو أداء فريضة الحج، (٣) و هو ما يفهم بأنه محاولة للفصل بين الرحلات المغربية والأندلسية و بين القصد التعبدي الذي خرج من أجله أصحابها، أو

---

(١) مقدمة د . حسين نصار لرحلة ابن جبير ص : ١٠.

(٢) راجع مقدمة د. علي المنتصر الكتاني لرحلة ابن بطوطة ص ١٦ – ١٨ . و قد اُختُلِف حول ما إذا كان قد حج عام ٧٣٠ هـ أم لا.

(٣) راجع على سبيل المثال لا الحصر تقديم د. معن زيادة لعدد خاص عن الرحلات العربية من مجلة " الفكر العربي " ، العدد ٥١ ، السنة ٩ يونيو ١٩٨٨ ،و راجع أيضا في العدد نفسه من هذه المجلة مقالا للدكتور أحمد أبو حاقة ص ١٢٠ ، و الغريب أنه ضرب مثلا بابن جبير و ابن بطوطة من أهل الغرب الإسلامي.

بصيغة أخرى هو محاولة لإقصاء الوازع الديني الذي هو المحرك الأول لهؤلاء الرحالين للقيام بهذه الرحلات – رغم ما فيها من المشاق والمصاعب التي أودت بكثير من الحجاج المغاربة و الأندلسيين علماءَ وعوامَّ – ليصبح جزءا ثانويا من برنامج الرحلة، أو محطة عارضة في طريق الرحّالة للبحث عن المجهول كما يدَّعون، و ربما لا أكون مخطئا إذا قلت بأن نَصَّ هؤلاء الرحالين في مقدمات رحلاتهم التي وصلتنا على أنهم خرجوا من ديارهم إلى الشرق لأداء فريضة الحج، هو تنبيه مقصود للحسم في كل ما يمكن أن يثار حول الغاية التي رحلوا من أجلها، و إيضاح لمن يخالجه شيء من الشك أو الريبة في أهدافها، خاصة و أن ما دَوَّنُوه في ثنايا رحلاتهم ليس وصفا للمشاعر المقدسة، أو أنه تفصيل في ذكر مناسك الحج فقط، و إنما هو تدوين لكل نشاط قاموا به – مهما يكن نوع هذا النشاط – منذ اللحظة الأولى للرحلة في الذهاب إلى آخر لحظة منها في الإياب . فالحج إذن هو القصد الأول من هذه الرحلات، و ما أوردناه من كلام أصحابها لا يدع مجالا للشك أو التأويل .

٢ – طلب العلم ثانيا :

و لكن إذا كان الحج هو الهدف الأول و الأساس لرحلة المغاربة و الأندلسيين إلى المشرق، فإن هناك هدفا آخر يأتي في الرتبة الثانية بعد الفريضة : إنه طلب العلم، و ليس بعده هدف آخر يقصد لذاته، لأن من تأمل هذه الرحلات بإمعان لا يجد أي هدف آخر غير الحج الذي عُقدت من أجله النوايا بالأساس ثم طلب العلم، حيث ينتهز

الرحالون فرصة مرورهم بمراكز العلم الشهيرة بالمشرق، فيجلسون إلى علمائها للأخذ عنهم و الحصول منهم على الإجازات، تمهيدا لإفادة أهل الغرب الإسلامي من هذه العلوم التي كانوا في أمس الحاجة إليها في تلك المرحلة بالذات .

و ما يدفع إلى هذا الاعتقاد عندي ما يلي :

أ – أن الغرب الإسلامي كله زمنَ ميلاد رحلات الحج كان مضطربا اضطرابا شديدا، أثّر تأثيرا سلبيا على الحياة العلمية فيه، لذلك لا نجد أحدا يتحدث عن العلم في الغرب الإسلامي في تلك المرحلة، إلا و يندب حظّه و يرثي لحاله بعد ما أقفرت معاهده، وانفرط عِقْدُ مجالسه بعد زوال دولة بني أمية في الأندلس، يقول ابن خلدون :" و إذا تقرر ذلك، فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه و تناقص الدول فيه، و ما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع و فقدانها كما مرّ، و ذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب و الأندلس و اسْتَبْحَرَ عمرانهما، و كان فيهما للعلوم و الصنائع أسواق نافقة و بحور زاخرة، و رسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما و ما كان فيهما من الحضارة، فلما خَرِبَتَا، انقطع التعليم من المغرب إلا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفادا منها، و لم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية في أولها، و قرب عهد انقراضها بمَبْدَإِهَا، فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل، و بعد انقراض الدولة بمراكش، ارتحل إلى المشرق من أفريقية القاضي أبو القاسم

بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة، فأدرك تلميذ الإمام ابن الخطيب، فأخذ عنهم و لُقِّنَ تعليمهم، و حذِقَ في العقليات والنقليات و رجع إلى تونس بعلم كثير و تعليم حسن ."، [١] و في مكان آخر قال : " وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه، و انقطاع سند العلم و التعليم كما قدمناه في الفصل قبله ." [٢]

و رأي ابن خلدون لا يختلف عن رأي أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ) قبله، و الذي كان يعيش أزمة العلم و التعليم بالمغرب و استفحال الجهل بين أهله، وهذا ما نص عليه أبو بكر بن العربي في كتابه "أحكام القرآن "، حيث قال :"وقد كنت قلت لشيخنا الإمام الزاهد أبي بكر الفهري : اِرحل عن أرض مصر إلى بلادك، فيقول : لا أحب أن أدخل بلادا غلب عليها الجهل وقلة العقل." [٣]

فكثرة الفتن و انعدام الأمن يصحبه عادة فشوُّ الجهل، وارتفاع العلم بقلة الإقبال عليه، و رحيل أهله أو مقتلهم فيمن يقتل زمن

(١) المقدمة ، الطبعة الرابعة ، دار القلم ، بيروت ١٩٨١ ص ٤٣٠ – ٤٣١ . و أما دولة الموحدين فهي ثالث دولة حكمت المغرب ، أسسها عبد المؤمن بن علي الموحدي الذي ساهم بشكل مباشر في القضاء على دولة المرابطين نهائيا عام ٥٤١ هـ ، و قد ساعد على هذا التأسيس دعوة المهدي بن تومرت الذي كان صاحب دعوة الموحدين أول الأمر ، و الممهد الحقيقي للانقلاب على دولة المرابطين ، راجع ذلك مفصلا في النبوغ المغربي في الأدب العربي ، للشيخ عبد الله كنون الحسني رحمه الله ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٥ ، ١ / ١٠٤ و ما بعدها.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٣٦.

(٣) أحكام القرآن ، راجَعَ أصوله و خرّج أحاديثه و علق عليه محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٤ ، ج١ ص ٦١١.

الفتن، و ما أكثرهم في المغرب و الأندلس ممن تحدثت عنهم كتب التراجم في حقب مختلفة، خاصة حين يكون سقوط دولة ما قريبا من زمن قيامها كما هو شأن الموحدين بالمغرب على حد تعبير ابن خلدون قبل قليل، أو ما كان بالأندلس زمن الطوائف، أو حتى عند سقوط دولة الموحدين بها أوائل القرن السابع، وما استتبع ذلك من فتن ذهبت معها معظم أراضي الأندلس قبل استقرار الملك آخر الأمر بيد ابن الأحمر بعد القضاء على غَرِيمَيْه ابن هُودٍ و ابنِ مَرْدَنِيشْ ثم التخلص بعد ذلك من بني أَشْقَيْلُولَةَ .(١)

(١) راجع ذلك مفصلا في أطروحتنا لنيل دكتوراه الدولة تحت عنوان :" الصورة الشعرية و دلالاتها في الشعر الأندلسي على عهد بني الأحمر " ،الجزء الأول ص ١٧٤ و ما بعدها ، و للتعريف بهذه الشخصيات المذكورة ، أقول :

١ – ابن الأحمر : هو الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي ، و هو مؤسس دولة بني الأحمر و أول ملوكها ، توفي عام ٦٧٢ هـ .

٢- أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، الملقب بالمتوكل على الله ، خرج في نواحي مرسية واستولى عليها بعد أن تغلب على صاحبها أبي العباس الموحدي و خطب للخليفة المستنصر العباسي ، و بايعت له قرطبة و إشبيلية و شاطبة و غيرها مدة قصيرة حتى توفي عام ٦٣٥ هـ في مدينة ألمرية و قيل مات خنقا على يد وزيره و نائبه في هذه المدينة أبي عبد الله محمد بن عبد الله الرميمي .

٣- أبو جميل زيان ابن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن مردنيش الجذامي ، ثار في مدينة بلنسية و استولى عليها بعد أن طرد منها أبا زيد الموحدي ، وبقي بها إلى أن أسقطها خايمي الأول ، ملك أراغون عام ٦٣٦ هـ .

٤ – بنو أشقيلولة : هم الذين نافسوا بني الأحمر على الملك قبل أن تنقاد لهم الأندلس بعد قضائهم على الثائِرَيْن السابقين ، و قد تزعم بني أشقيلولة هؤلاء ، أبو محمد ابن أشقيلولة و كان =

فالرحالة إذن كان يرحل إلى الشرق وسط هذه الأجواء المظلمة، وهو يحمل معه همَّيْنِ : هَمَّهُ الشخصي، والمتمثل في الرغبة الخالصة في الوصول إلى البلد الحرام لأداء المناسك ثم العودة إلى بلده سالما، و همَّ أهل بلده الذين استشرى فيهم الجهل مع كثرة الطيش وقلة العقل كما قال الطرطوشي سابقا، مما يستتبع التفكير في ضرورة تغيير الوضع بالعلم و التعليم، أملا في ربط الحاضر المظلم بما فيه من جهل و أهواء، بالماضي المشرق بما كان فيه من علم و حضارة قادت المسلمين إلى أقاصي الدنيا شرقا و غربا .

و لا سبيل إلى بلوغ هذا إلا بتجديد الروابط العلمية بين المغرب و المشرق الذي هو منبع رسالة الإسلام، و فيه نشأت العلوم الإسلامية المختلفة سواء في البلاد العربية أو البلاد الإسلامية من أرض العجم، يقول ابن خلدون :" فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم و في سائر الصنائع، حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق طلبا للعلم أن عقولهم على الجملة أشمل من عقول أهل المغرب، و أنهم أشد نباهة و أعظم كَيْسا بفطرتهم الأولى، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتهم من نفوس أهل المغرب، و يعتقدون

=

صهرا لابن الأحمر ، و قد زادت حدة تمرده في عهد ثاني ملوك هذه الدولة ، و هو محمد الفقيه ، إلا أن تدخل يعقوب بن عبد الحق المريني ، أصلح ذات بينهما فيما بعد ، راجع ذلك مفصلا في تاريخ ابن خلدون بعناية خليل شحادة ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٨٨ ، ٧ / ٢٦١ ، و الذخيرة السَّنِيَّة في تاريخ الدولة المرينية لعلي بن أبي زرع الفاسي ، دار المنصور ، الرباط ١٩٧٢ ، ص : ١١٢ و ص : ١٢١ ، و نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الرابعة ١٩٨٧ ، ص ٥١ و ما بعدها

التفاوت بيننا و بينهم في حقيقة الإنسانية، و يتشيَّعون لذلك، ويولعون به لِمَا يَرَوْن من كيسهم في العلوم و الصنائع ؛ و ليس الأمر كذلك، وليس بين قطر المشرق و المغرب تفاوت بهذا المقدار ." (١)

و كيفما كان الحال، فإن المغاربة و الأندلسيين ينظرون إلى المشرق و أهله على أنه المعين على تجاوز المحنة في الغرب الإسلامي، و لأنهم أدركوا كيف ثبت المشارقة بفضل الله عز و جل ثم بعد ذلك بفضل علمائه في وجه العواصف الهوجاء التي اجتاحته إثر حملة المغول والتتار، ومع ذلك لم تَخْبُ جذوة العلم بالعواصم المشرقية مثلما خبت بالمراكز العلمية المغربية يومئذ ؛ و لأنهم يعلمون أيضا أنه ما من نهضة علمية بالمغرب عبر تاريخه، إلا و كان أحد أسبابها الاتصالُ بالمشرق و علمائه، يقول الدكتور عبد الله الترغي عن الحياة العلمية على عهديِّ المرابطين و الموحدين :" و يشهد المغرب نمو تلك الحركة العلمية التي وجدنا آثارها في سبتة و فاس خلال القرن الخامس، فيكثر الدرس و يزدهر التأليف و تكتمل للمغرب شخصيته العلمية المؤثرة، و تعمل على تنمية هذا النشاط العلمي عوامل متعددة ... من بينها الاتصال بالشرق إما عن طريق إعمال الرحلة للقاء علمائه و استجلاب ما عندهم من روايات و مصنفات، و إما عن طريق المكاتبة و استدعاء الإجازات ."، (٢) و حين وصلت الحياة العلمية أوجها في المغرب على

(١) المقدمة ص ٤٣٢ – ٤٣٣.

(٢) فهارس علماء المغرب ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة عبد الملك السعدي ، تطوان – المغرب ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ ، ص ١٧ – ١٨ . و راجع أيضا مقدمة أستاذنا محمد بنشريفة =

عهد بني مرين، يرى الدكتور عبد الله الترغي أن من أهم أسباب ذلك هو " تكثيف الرحلة إلى المشرق للاستفادة من علمائه و الجلوس إلى شيوخه، وهي رحلة و إن كانت استمرارا لرحلات المغاربة السابقين، إلا أنها تصبح ذات فاعلية أقوى في الاتكال على المشرق في مشيخته بعد غياب المشيخة الكبرى عن الأندلس ." (١)

و قد اعتمد الدكتور عبد الله الترغي هذا الرأي ذاته وهو يفسر النهضة العلمية التي انتعش بها المغرب نهايةَ بني وطّاس و قيام دولة السعديين ،(٢) و الأمر كذلك حين ازداد الإشعاع العلمي بالمغرب مع قيام دولة العلويين، حين تكثف " الاتصال بالمشرق فكثرت الرحلة إلى علمائه و استجازتهم، و قد انعكس ذلك على كتابة الفهرسة، فتعددت الأسماء العلمية التي تنسب إليها الفهارس في هذا العصر." .(٣)

فما من نهضة علمية في الغرب الإسلامي إلا و كان لأخيه المشرق فضل فيها برحلات الحج التي كان يقوم بها المغاربة والأندلسيون، و التي كانوا يستغلون خلالها الفرص للاتصال بالعلماء

=

لكتاب " الذيل و التكملة " لابن عبد الملك المراكشي ، منشورات أكاديمية المملكة المغربية ، طبعة ١٩٨٤ السفر الثامن ، القسم الأول ص ٤١ – ٤٢.

(١) فهارس علماء المغرب ص ٢٦.

(٢) نفسه ص٢٥ – ٢٦.

(٣) نفسه ص ٢٦.

و المشايخ في المراكز ا لعلمية المختلفة .

ب – أن أغلب الرحالين يطلقون على رحلاتهم الحجازية عناوين تعبر صراحة عن الاستفادة من علوم المشرق في طريقهم إلى الحج ذهابا و إيابا ، فابن رشيد السبتي يطلق على رحلته عنوان " ملء العَيْبَة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة و طيبة "، ورحلة أبي القاسم التجيبي عنوانها " مستفاد الرحلة و الاغتراب "، وعنوان رحلة خالد بن عيسى البلوي " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق "، و رحلة القلصادي عنوانها " تمهيد الطالب و منتهى الراغب إلى أعلى المنازل و المناقب " .

فهذه العناوين تعبر بصراحة عن أن طلب العلم و الأخذ عن العلماء و المشايخ المشارقة ،كان ثانِيَ همٍّ يشغل بال الرحالين من الغرب الإسلامي، فيَقْضُون لأجل ذلك شهورا بل وسنوات كما هو شأن أبي بكر بن العربي و بعده ابن رشيد السبتي و أبي القاسم التجيبي، وهم يترددون على مجالس العلم في المراكز العلمية المشرقية الشهيرة ابتداء من تلمسان لمن سلك طريق البر، أو بجاية لمن سلك طريق البحر، و انتهاء بمكة المكرمة أو المدينة المنورة .

فهاجس العلم كان ملازما لهاجس الحج، يحرص عليه الرحالة قبل أداء المناسك و بعد أدائها ، لذلك ينفق صفحات طوال في ذكر من لقيه من أهل العلم في المدن الكبرى كتونس والإسكندرية و القاهرة و القدس و عسقلان و حلب و بغداد ، هذا فضلا عن مكة المكرمة والمدينة المنورة، و قد " كانت العادة أن يبدأ الناس السماع

في الحجاز إذا وصلوا إليه تاركين من يمرون به من الشيوخ في الطريق إلى العودة، فبعد أداء الفريضة يتسع الوقت للدراسة و الطلب ." (١)

لذلك تصبح الرحلة نمطا من أنماط الفهرسة كما يسميها المغاربة أو البرنامج كما يسميها الأندلسيون أو الثبت كما يسميها المشارقة، لأنها تتحدث بتفصيل عن الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم الرحالة و روى عنهم و أجازوا له، هذا بالإضافة إلى الكتب والمصنفات التي درسها عنهم و أخذها عنهم سماعا . و تجدر الإشارة هنا – وسيأتي بيان ذلك من بعد إن شاء الله تعالى – إلى أن الحديث النبوي الشريف يأتي في المقام الأول من طلب العلم و في مختلف المراكز العلمية و لدى كل الرحالين .

ج – أن ثقافة أهل المغرب في تلك المرحلة كانت تجعل من الرحلة أُسًّا من أسس العلم وطلبه، فما من عالم يومئذ إلا و أعمل الرحلة في طلب العلم سواء كانت رحلة داخلية، وهي أقل قيمة لانعدام المراكز العلمية كما سبق القول مع ابن خلدون، أو رحلة خارجية، وهي التاج الذي يُحَلَّى به العالم، و بها يُعرَّف، ليكون بعد عودته هو بدوره مقصدَ الطلبة و تُشدُّ إليه الرحال، كما وقع لجلِّ الرحالين المستشهد بهم في هذه المداخلة، لذلك يقول ابن خلدون عاكسا هذه الثقافة، وهو يتحدث عن ضرورة الرحلة لطالب العلم :" فلقاء أهل العلوم وتعدُّد المشايخ يفيده تَمْيِيزَ الاصطلاحات، بما يراه من اختلاف

(١) تاريخ الجغرافية و الجغرافيين العرب ص ٤٣٢.

طرقهم فيها، فيجَرِّدُ العلمَ عنها، و يعلَم أنها أنحاء تعليم، و طرق تُوصِلُ و تُنْهِضُ قُواه إلى الرسوخ و الاستحكام في المكان، و تصَحِّحُ معارفه و تميِّزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة و التلقين و كثرتِهما من الْمَشْيَخَةِ عند تعددهم و تنوِّعهم، و هذا لمن يسَّر الله عليه طرق العلم و الهداية، فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد و الكمال بلقاء الشيوخ و مباشرة الرجال و الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم." (١)

فابن خلدون يتحدث بلسان المغاربة في نظرتهم إلى طلب العلم، فالأخذ عن مشايخ البلد لا يكفي، إذ لابد من الرحلة إلى مراكز العلم الكبرى لاستكمال الطلب و الاستزادة من العلوم المتعددة والمتنوعة بتعدد المشايخ و العلماء و السماع عنهم مباشرة، لما في ذلك من اختبار لمعارف طالب العلم بتنقيحها و تصحيحها و زيادتها أيضا، (٢) هذا فضلا عن التدريب على المناقشة و المحاورة و التواصل بأشكاله المختلفة مما يساعد على انطلاق اللسان واتقاد الذهن و شحذ القريحة و سوى ذلك مما لا محيد لطالب العلم عنه.

(١) المقدمة ص ٥٤١.

(٢) عثرت في كلام الدكتور سعيد بنسعيد العلوي على قول غريب في هذا الميدان ، حيث قال :" فقد تكون الرحلة من أجل استكمال المعرفة أو تنقيصها ." ، الرحالة العرب و المسلمون ، اكتشاف الآخر – المغرب منطلقا و موئلا ، ص ١٨ ، و لم أجد مخرجا لهذا التعبير الغريب سوى أن يكون قصده ، بأن يكتشف الرحالةُ / طالبُ العلم نقصان معارفه بلقائه العلماء و الشيوخ فيسعى إلى استكمالها و الزيادة منها ، و مع ذلك ، فالتعبير – فيما أراه – مضطرب و لا يستقيم ، و الله أعلم.

و هذا كله كانت تحققه رحلات الحج، فالمغرب أو الأندلسي الراحل إلى المشرق لأداء الفريضة، يستغل الفرص المتاحة له أثناء رحلته، فيقعد إلى الشيوخ و يغشى مجالسهم التي كانت تعج بها مختلف المدن الكبرى و حتى الصغرى التي كانت في طريق الحجاز، فيتحقق له بذلك غرضان شريفان هما من لبِّ العبادة و صميم الدين : الحج و طلب العلم، و هذا هو السر الذي جعل رحلات الحج تسهب كثيرا في التركيز على تعداد الشيوخ و الترجمة لهم وذكر العلوم المسموعة عنهم حتى لتصبح الرحلة وجها من وجوه الفهرسة أو البرنامج كما سبق القول،[(١)] كما تسهب – إلى جانب ذلك – في وصف الحرمين الشريفين و صفا دقيقا يدخل في أبسط التفاصيل و أدقها مما له علاقة بأهل مكة المكرمة و أهل المدينة المنورة وعاداتهم، و هذا ما جعل الصفحات المخصصة لذكر هذين البلدين الشريفين و معاهدهما وآثارهما تشغل حيزا مهما من الرحلة،[(٢)] خاصة و أن الرحالة يمزج هذا الوصف بمشاعره و عواطفه النبيلة، وهو في رحاب هذه البقع الطاهرة التي يعلم أن الملايين من أهل بلده يحرمون من التمتع بها لبعد المسافة بين المشرق و المغرب و صعوبة قطعها للظروف الأمنية التي

(١) عقد الدكتور عبد الله الترغي مقارنة طريفة بين الفهرسة و الرحلة ، في كتابه فهارس علماء المغرب ص ١٣٤ ، فليراجع هناك ، و راجع أيضا الرحلات من المغرب و إليه عبر التاريخ ص ٦١.

(٢) لم يشذ عن هذا سوى القلصادي في رحلته ، حيث لم يخصص لوصف الحرمين الشريفين سوى ست عشرة صفحة ، ولولا الحواشي الطويلة لكان عددها أقل ، و هذا في حد ذاته يدل على بداية الانحدار في تدوين رحلات الحج بعد عصرها الذهبي ، خاصة و أن رحلة القلصادي هذه ، هي آخر رحلة أندلسية قبل السقوط النهائي.

كثيرا ما تحدث عنها الناس .

لذلك " فالرحلة لطلب العلم و أداء فريضة الحج عمل عرفه الغرب الإسلامي منذ عهوده الأولى، فمعظم علمائه كانت لهم رحلات علمية واسعة إلى الشرق لأداء فريضة الحج و لقاء الشيوخ، و جل المصنفات المتداولة في مجالس العلم بالغرب الإسلامي وردت على يد علمائه الرحالة ." (١) و بالتالي فإن أي تبرير للدوافع التي كانت وراء رحلات الحج لا يأخذ بعين الاعتبار أداء الفريضة أولا ثم طلب العلم ثانيا يظل تبريرا باطلا مهما كانت مسوغاته و مبرراته، و هذا ما وعاه القدماء في حديثهم عمَّن رحل من المغاربة و الأندلسيين إلى المشرق، فكل تراجمهم تشير إلى الرحلة لأداء الفريضة ثم لطلب العلم، و تأتي لفظة " الحج " دائما في صدر الكلام، ثم تليها عبارات من قبيل " أخذ، سمع، لقي، روى، جالَسَ " في المقام الثاني، و هذه بعض النماذج على سبيل الاختصار و الاستئناس، فكتب التراجم المغربية و الأندلسية تفيض بما نذهب إليه :

يقول ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته لهؤلاء العلماء :

ـ أبو الحسن علي بن نصر فاتح بن عبد الله : " و حج و سمع بمكة شرفها الله ." (٢)

---

(١) فهارس علماء المغرب ص ١٣٤ ، و راجع أيضا نفس الرأي لأستاذنا أحمد حدادي في رحلة ابن رشيد السبتي :٥٥٢/٢.

(٢) الذيل و التكملة ، السفر الثامن ، القسم الأول ص ١٦١.

ـ علي بن محمد الأنصاري الخزرجي : " و رحل بآخرة إلى المشرق و حج و جاور بمكة كرمها الله مدةً و جالس علماءها . " (١)

ـ محمد بن معروف : " رحل و حج و أخذ بالإسكندرية ." (٢)

و هذه أمثلة لابن الزبير في ترجمته للعلماء المغاربة و الأندلسيين الراحلين إلى المشرق :

ـ يحيى بن عبد الملك اللخمي : "رحل إلى المشرق و حج و لقي جِلَّة و أخذ عنهم ." (٣)

ـ يوسف بن محمد بن علي الصنهاجي : " رحل فحجَّ و أخذ في رحلته عن أبي الخطاب ... " . (٤)

ـ محمد بن عبد الكريم بن عمر الجرشي :" له رحلتان إلى المشرق حج فيهما ،أولاهما سنة ٥٩٩ هـ ، أخذ عن جماعة، ثم قفل راجعا إلى الأندلس، و ندم على ما فاته من السماع هناك عن أهل العلم، فكَرَّ راجعا سنة ٦٠٦ هـ و أخذ عن بقايا الشيوخ ثم عاد إلى

(١) نفسه س ٨ ق ١ ص. ٢٠٩.

(٢) نفسه س ٨ ق ١ ص ٢٦٤ ، و راجع أيضا ص ٢٣٧ و ص ٣٣٧ ، و غيرها من نفس القسم و السفر، فالأمثلة كثيرة.

(٣) صلة الصلة ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية – المغرب ، طبعة ١٩٩٥ ، الجزء ٥ ، ص ٢٦٧.

(٤) نفسه ٢٩٢/٥.

الأندلس بأسمعة كثيرة ."(١)

و هــذه أمثلــة أخـــــرى لابــن الخطيــب، حيــث يقــول في بعــض تراجمه :

ـ محمــد بــن أحمــد بــن مــرزوق العجيــسي : "رحــل إلى المــشرق في كنــفِ حــشـــــمةٍ مــن جنــاب والــده رحمــه الله، فحــج و جــاور و لقــي الجِلَّة ." (٢)

ـ ابــن رشــيد الــسبتي : " رحــل مــن بلــده ســبتة لأداء الفريــضة، حــج و لقي المشايخ . " (٣)

ـ عبــد الله بــن أحمــد بــن مميــل بــن زيــد الغــافقي : " حــج في حــدود سبعة و ثمانين و ستمائة و روى عن جلة من أهل المشرق . " (٤)

و للمقـــري التلمـــساني نفـــس الـــنهج في ترجمتـــه للـــراحلين إلى الــشرق في كِتابَيْــه " أزهــار الريــاض " و " نفــح الطيــب "، و هــذه بعــض الأمثلة :

(١) نفسه ٤٠٩/٥ ، و راجع أمثلة أخرى في الصفحات التالية : ٣٨٥/٥ ، ٣٩٢/٥ ، ٣٩٨/٥ ، ٣٩٨/٥ ، ٤٠٠/٥ ، ٤٠٣/٥.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مطبعة الخانجي ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ ، ج١٠٤/٣.

(٣) نفسه ١٣٦/٣.

(٤) نفسه ٤١٢/٣ ، و راجع أيضا الصفحات: ٢٣١/٢ ، ٤٤٦/٢ ، ٢٧٣/٣.

ـ ابن الحكيم اللَّخمي : "ورحل إلى المشرق، وكانت إجازَتُه البحرَ من ألمرية، فقضى فريضة الحج، و أخذ عمَّن لقي هناك من الشيوخ ، فَمَشْيَخَتُهُ متوافرة . " (١)

ـ أبو عبد الله ابن هذيل : "و رحل حاجّاً فسمع من السِّلفي و ابن عوف . " (٢)

ـ أبو عمران موسى بن سعادة : " و رحل و حج و سمع السنن من الطرطوشي و عُني بالرواية، و انْتَسَخَ صحيحي البخاري و مسلم بخطه . " (٣)

و هذه أمثلة أخرى لابن القاضي المكناسي :

ـ ابن رشيد السبتي : "رحل إلى المشرق لأداء الفريضة و لقاء أهل العلم . " (٤)

ـ ابن جبير : " ثم رحل لأداء فريضة الحج، فلقي جِلة أشياخ . "(٥)

(١) أزهار الرياض في أخبار عياض ، طبعة وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية – المغرب ، ٢/ ٣٤١ – ٣٤٢ ، و راجع أيضا : ٣٤٧/٢ – ٣٤٨ ، ١٦٣/٣.

(٢) نفح الطيب ، ٢١٩/٢.

(٣) نفسه ٢٢١/٢ ، و راجع أيضا الصفحات التالية : ١٥٨/٢-١٥٩، ٢١٧/٢ ، ٢١٨،٢ ، ٢٢٢/٢ ، ٥٩٥/٢ ، ٦١٦/٢.

(٤) جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور ، الرباط ١٩٧٣ ، ٢٨٩/١.

(٥) نفسه ٢٧٧/١ ، و راجع أيضا : ٢٨٦/١ ، ١٨٧/١.

فيتضح من هذه الأمثلة و سواها كثير جدا يجل عن الحصر، أن القدماء كانوا قد تواضعوا على الربط بين الحج و طلب العلم، لذلك فقد حرصوا في كل من ترجموا له على أن يشيروا إلى أنه رحل للحج، فأخذ عمّن لقي من أهل العلم أثناء الذهاب كما الإياب، والتزموا دائما بأن يضعوا أثناء صياغة الترجمة أداءَ الفريضة في المقام الأول، ثم طلبَ العلم في المقام الثاني، كما سبق القول، لأن النية التي خرج من أجلها الرحالة أول ما خرج هي أداء الفريضة، ثم لأنهم يعلمون جيدا بأن هناك من المغاربة من همْ من أهل العلم، قد رحلوا إلى المشرق للحج فقط دون طلب العلم، خلافا للعادة التي درج عليها أهل الغرب الإسلامي. من ذلك مثلا أبو عثمان سعيد بن جون المراكشي، الذي قال عنه ابن رشيد السبتي ما يلي: " ثم رحل إلى الحج قبل رحيلنا وعاد في المركب صُحّبَتَنا، و لم يأخذ عن أحد في رحلته، إذ لم يكن قَصْدُه ذلك، و كانت له مشاركة في علمي القافية و العروض. "، (١)
و هذا يؤكد كما قال شيخنا محمد بن شقرون بأن الدافع الأول إلى الرحلة هو دافع " ديني قبل كل شيء و أن الرغبة الملحَّة التي كانت تساور النفوس هي مغادرة الأوطان تأديةً لفريضة الحج ... فلا السياحة إذن و لا التجارة و لا المغامرة كانت غاية الرحلات التي خلفتها البيئة المغربية. " (٢)

(١) رحلة ابن رشيد السبتي ، ٣٤٥/١.

(٢) مظاهر الثقافة المغربية ، طبعة دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥ ص ١٧١.

و هو يرى بأن طلب العلم الذي يكون أثناء رحلة الحج هو من صميم الحج، و من ثم فهو من صميم الدين، لأن من أسمى غايات الحج أن يلتقي المسلمون بعضهم ببعض، وأن يتعارفوا فيما بينهم، لأن مناسبة اللقاء هي اجتماع على الله طاعةً له سبحانه، و ما لقاء العلماء و الشيوخ إلا جزء ممن يلتقي بهم المسلم من إخوانه، سوى أنهم الصفوة و النخبة التي تتطلع الأعناق إلى مجالستها و الاستماع إليها لما آتاهم الله عز وجل من فضله، و أفاض عليهم من العلم و الحكمة، يقول وهو يرد على بعض معترضيه : "و يقول أن هؤلاء الراحلين كانوا يقصدون كذلك أغراضا أخرى، منها الاتصال بالعلماء و الشيوخ وكبار الفقهاء و المحدثين للأخذ عنهم و التحقيق في سندهم والروايات التي قد تكون صدرت عنهم، و جوابنا على هذا الاعتراض هو أن ذلك صحيح، لكننا نرى أن الغاية كانت لا تختلف جوهريا، إذ العلوم التي كان يقصدها الرحالة المغربي تكاد لا تتجاوز ميدان الشريعة الإسلامية من فقه و حديث و تفسير و قراءات، فليس هناك إذن فرق ما دامت الغاية ترمي إلى التضلع و التبحّر في العلوم الدينية ."(١)

لهذا فإن هذه الرحلة الجامعة بين أداء مناسك الحج و أخذ العلم عن المشايخ و العلماء، كانت بمثابة تتويج للرحالة من جهتين : من جهة الدين، فقد تيسر له إتيان أركان الإسلام كلها، بينما أغلب

---

(١) نفسه ص ١٧١ – ١٧٢.

أهل المغرب يومئذ لا يقدرون إلا على أربعة لعدم تيسر سبل الحج؛ و من ثَمَّ فإن فوز الرحالة بزيارة الحجاز و أداء المناسك يجسد تحقيق أسمى الأماني و أشرفها، لطالما عبَّر عنها كل الرحالين عند وصولهم إلى البيت الحرام و قد سبقت الإشارة إلى ذلك . و من جهة العلم، حيث تعتبر الرحلة تتويجا علميا للرحالة، بها يبلغ من درجات العلم ما لا يتيسر لسواه من أهل بلده، و ذلك بلقاء العلماء الكبار من محدِّثين وفقهاء ممن تشد إليهم الرحال وتضرب دونهم أكباد الإبل للجلوس إليهم و السماع عنهم و أخذ الإجازات عنهم، و قد أحسن الأستاذ محمد الفاسي رحمه الله حين اعتبر هذه الرحلات " بمثابة الأطروحات التي يكلل بها علماء وقتنا دراساتهم، وكثيرا ما كانت هذه الغاية الدراسية تتحد مع أداء فريضة الحج، إذ كان الطالب ينتهز فرصة وجوده بالمشرق ليقوم قبل رجوعه لبلاده بزيارة البقاع المقدسة في موسم الحج و إتيان مناسكه ." (١)

و لعل الأمر يزداد فخرا حين ينظر الكل " إلى الرحالة بعد عودته من رحلته على أنه قد استكمل أدوات البحث و المعرفة واكتسب المناهج المعرفية المطلوبة، و كأنه قد تخرج في مؤسسة علمية ممتازة، لابد و أن يكون رأيه صائبا و علمه واسعا ... وهكذا يصير لآراء الرحالة و علمه وزن و قيمة و اعتبار عند الناس، فيقبلون عليه للاستفادة و الاسترشاد، فكثير من العلماء لم يشتغلوا

(١) من مقدمته ل : " الإكسير في فكاك الأسير " لابن عثمان المكناسي ، طبعة المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط ، سنة ١٩٦٥ ، ص (ج).

بالتدريس، و لم يتولوا المناصب الراقية إلا بعد الرحلة ." ،[١] خاصة وأن " الاعتقاد السائد هو أن الشخصية العلمية المغربية لا تكتمل إلا بالأخذ عن المشارقة، و التتلمذ عليهم، وهذا هو سر كثرة الرحلات نحو المشرق و قلة الرحلات المشرقية نحو المغرب، فالمقري ذكر ٣٠٧ راحل أندلسي إلى المشرق، بينما لم يذكر من الرحالة المشارقة إلا حوالي ٨٦ راحلا فقط، و لا يُفَسَّرُ هذا إلا بشعور المغاربة بالتلمذة للمشارقة، فالضرورة تدعو إلى شد الرحال إليهم و لو بَعُدَ المكان وطال الزمان، لأن التلمذة هي مطمح المغاربة، فلابد من ربط سندهم العلمي بهم إما بالمشافهة و الدراسة عليهم أو بالاستجازة . " [٢]

و من الغريب حقا أن بعض الباحثين يرى بأن كثرة التردد على مجالس العلم و الصبر على الرواية عن العلماء، ثم إيراد تراجمهم و الكتب التي أُخِذت عنهم في ثنايا الرحلة المدونة، منقصةٌ أو قل هي مثلبة من مثالب بعض الرحالين المغاربة، كما يظهر من خلال هذا القول للدكتور حسين مؤنس، و هو يقارن بين ابن رشيد السبتي وابن جبير، حيث يقول : " ومن حسن الحظ أن ابن جبير كان رجلا واعيا عائشا في دنيا الناس، لا طالب علم ذَاهِلاً، ينزل بالبلد فلا يرى فيه إلا الشيخ فلان و الشيخ علان، و ينفق الصفحات فيما قرأ على هذا وما سمع عن ذاك، و أنت إذ تقرأ رحلة رجل مثل ابن رشيد الفهري يخَيَّلُ

(١) أدب الرحلة بالمغرب ، ص ٩٧.

(٢) نفسه : ٨١.

إليك أن هذا الرجل كان يسير في فراغ لا يرى فيه إلا مجالس الشيوخ، وحاله كحال رجل سائر في الليل و نظره مثبت في السماء يعد النجوم . " (١)

و لولا قساوة العبارات لهان الأمر، و لكن أن يغيب الهدف الأسمى الذي كان يخامر وجدان ابن رشيد وهو يحمل همّ الغرب الإسلامي في أحلك مراحله حين جال ببصره في المغرب عامة و هو يبحث عن نفسه وسط اضطرابات سياسية لا نهاية لها، قبل انقياد الأمر لبني مرين، كما جال به في سَبْتَةَ بَلَدِه بخاصة حين اندرست معالم الحديث النبوي الشريف و عزف معظم الناس عن روايته و الاعتناء بسنده، ليجد نفسه مضطرا إلى التغرب لأخذ حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم من أفواه المحدِّثين المشارقة ليعود به لتحديث أهل بلده مما رَوَى ووَعَى، حتى كان فاتح صفحة جديدة للدراسات الحديثِيَّة بالغرب الإسلامي – و هذا ما سنقف عنده في حينه من هذه المداخلة إن شاء الله عز و جل – كلُّ هذا ما كان ليغيب عن الدكتور حسين مؤنس بعلمه الواسع بالأندلسيات و المغربيات، ولكن من ذا الذي يسلم من عثرات اللسان .

و مهما يكن فإن أهل الغرب الإسلامي كانوا ينتهزون فرصة الحج لتوسيع آفاقهم المعرفية بالاغتراف من مناهل الشرق و منابعه العلمية التي لا قرار لها في تلك المرحلة بالذات، إبان القرنين السابع

(١) تاريخ الجغرافية و الجغرافيين العرب ، ص ٤٥١.

والثامن، فكانوا يخشون من أن يعودوا إلى بلدهم دون الاسْتِمْتَاعِ بلحظات التتلمذ على أيدي المشهورين من العلماء يومئذ – و لا يزالون إلى الآن كذلك – فتفوتهم فرصة الأخذ عنهم فينتابهم الندم بعد الأوبة كما حدث لمحمد بن عبد الكريم بن عمر الجرشي الذي ندم على ما فاته من السماع من أهل المشرق فكرَّ راجعا للحج ثانية، والأخذ عن بقايا الشيوخ قبل أن يعود بأسمعة كثيرة (١)، لأنه أدرك كما أدرك معاصروه من أن الغاية " من كثرة الاتصالات والاحتكاكات الفردية و الجماعية، كانت تهدف إلى نتائج تربوية تعود على الرحالة المغربي بتكوين شخصيته و تدعيم مركزه، وتنمِّي ثقافته، كما كانت ترمي إلى ربط صلات مع أعلام في الشرق أو في غيره، توسيعا للأفق و توثيقا للعلاقات الثقافية التي كانت في العصر الوسيط جارية بصفة فردية و تلقائية، إذ العلم حسب تعبير أنصار هذه الأساليب التربوية يؤخذ من أفواه الرجال لا من الكتب. " (٢)

و الناظر في المصادر المغربية و الأندلسية القديمة يجدها تحتفي احتفاء خاصا بالرحالة حين يعود إلى بلده سالما و قد ملأ عَيْبَتَهُ علما وفضلا، و كأن هذه المصادر تعكس فعلا مشاعر عامة الناس وخاصتِهم في الغرب الإسلامي و هم يتطلعون إلى عودة الراحلين إلى الشرق لِيَرْتَوُوا مما ارْتَوَوْا منه في مناهل العلم و ينابيعه أثناء رحلاتهم،

(١) صلة الصلة، لابن الزبير، ٤٠٩/٥.

(٢) مظاهر الثقافة المغربية، ص ١٨٥.

لذلك لا تفتأ كتب التراجم تذكر غزارة العلم لدى هذا العالم أو ذاك بعد عودته من المشرق مع ما يستتبع ذلك من فضل و هيبة . من ذلك مثلا قولهم في أبي بكر بن العربي :"ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين، و قدم إلى إشبيلية بعلم كثير لم يدخل به أحد قبله ممن كان له رحلة إلى المشرق ." (١)، وقال المقري أيضا في أبي عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة :" و عاد إلى مرسية في سنة ست وعشرين وخمسمائة وقد حصَّل في رحلته علوما جمَّة ورواية فسيحة ." (٢) وقال ابن القاضي المكناسي في ابن جبير :" و عاد إلى غرناطة و قد اسْتَوْسَقَ علما و فضلا ." (٣)، أما ابن الخطيب فقد حلَّى ابن رشيد السبتي بهذه التحلية المسجوعة على عادته، فقال :" ولحق بالأندلس، فتهللت لقدومه أسرّتها، و احتفلت لقِراه درَّتها، و أخذ عنه صدورها، واستمدت من تِمِّهِ بُدُورُها، و فَغَمَ مجالسها العلمية طِيبًا ." (٤)، و في أبي القاسم بن زيتون قال ابن خلدون : "و رجع إلى تونس بعلم كثير و

---

(١) راجع بتفصيل : أزهار الرياض ٦٢/٣ ، و وفيات الأعيان ، لابن خلّكان ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار صادر ١٩٧٨ ، ٢٩٦/٤ ، و الديباج الْمُذَهَّب في معرفة أعيان الْمَذْهَب لابن فرحون ، دراسة وتحقيق ، مأمون بن محي الدين الجنان ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ ، ص ٣٧٧.

(٢) نفح الطيب ١٥٨/٢.

(٣) جذوة الاقتباس ١٧٧/١.

(٤) أوصاف الناس في التواريخ و الصِّلات ، تحقيق محمد كمال شبانة ، طبعة وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية – المغرب ص ١٠١ – ١٠٢.

تعليم حسن ." [1] ، كما قال في أبي علي ناصر الدين المشدالي : "ورجع إلى المغرب بعلم كثير و تعليم مفيد ." [2]

و كأن المغاربة و الأندلسيين بهذا الاحتفاء الذي سجلته كتب التراجم المختلفة يبصرون في الرحالة العائد من الشرق إلى وطنه عالما فاضلا ، بصيصَ أمل ، و بشارة يُمْنٍ إلى أبنائهم لكي تعيد تحريك عجلة التعليم و حلقات الدرس التي كان قد أتى على أغلبها حدثان الدهر حتى بات يهدد الغرب الإسلامي كله ، و بخاصة في الأندلس على عهد بني الأحمر . ثم إن هذه العودة [3] من لدن الرحالة ، تعتبر في حد ذاتها دلالة على الرغبة في التغيير، و إصرارا على جبر الجناح الغربي من العالم الإسلامي الذي ما فتئت نوائب الدهر تعمل على كسره بمعاول الفتن و الدسائس والاغتيالات ، و ذلك بنشر العلم الشرعي و تنشيط الحركة العلمية في مختلف المدن و القرى و البوادي ، لتحصين النفوس ضد اليأس الذي كاد يستولي على الناس بعدما تهاوت كل الجدران السياسية و العسكرية و سواها ، ولم يبق إلا الجدار الأخير، جدارُ العلم الذي كان فضل الشرق فيه على المغرب فضلا لا ينكر .

(١) المقدمة ص ٤٣١.

(٢) نفسه.

(٣) قال الدكتور حسين مؤنس : " و قد أحصينا في الدرر الكامنة لابن حجر ، فوق المائتيْ مهاجر أندلسي إلى الشرق في القرن الثامن الهجري ،وتسعون في المائة منهم أقاموا بمصر و استقروا بها ." تاريخ الجغرافية و الجغرافيين العرب ، ص ٥٢٧.

و لا أشك في أن هذا كله كان يخامر كل الرحالين المغاربة و الأندلسيين الذين رحلوا إلى الشرق لأداء الفريضة و طلب العلم، ابتداء من أبي بكر بن العربي [(١)] ، و انتهاء بالقلصادي الذي اضطر آخر الأمر إلى النزوح عن وطنه الأندلس بعد ما أحس باستحالة " تخليصه من شَرَكِ الشِّرْك " [(٢)] — و يقصد بذلك استحالة الحيلولة دون سقوط الأندلس بيد النصارى — ليستقر بتونس إلى أن وافته المنية بمدينة باجة غريب الدار و الوطن .

لذلك إذا تأملنا في هذه النماذج الثمانية التي اخترناها في هذه المداخلة، نجد أن أول ما يشغل بال أصحابها في كل بلد ينزلون به هو البحث عن العلماء و الفقهاء سواء الذين يشغلون مناصب رسمية في الدولة التي ينتمون إليها كالقضاء و الكتابة في الدواوين السلطانية و غيرها، أو الذين يتفرغون للتدريس في المدارس المرتبة للتعليم، أو المساجد و الجوامع التي يجمعون فيها بين الإمامة و الخطابة، أو في بيوتهم التي كانت ملاذا لطلبة العلم، خاصة إذا كان العالم المقصود ممن له شهرة واسعة في العالم الإسلامي آنئذ، لذلك نجد هؤلاء الرحالين يحرصون على اللقاء بأولئك العلماء و لو في مجلس واحد ليسمعوا عنهم، ثم يأخذوا منهم الإجازات لأنفسهم و لغيرهم من الطلبة من أهل بلدهم ممن يستجيزون بعض المشايخ بأعينهم، فيجيزون لهم

---

(١) راجع ما كتبه في هذا الصدد الدكتور عز الدين عمر موسى في مقاله المشار إليه سابقا ، من مجلة " العرب " في الحلقة ٣ ص ٢٥٣ ، و الحلقة ٤ ص ٤٠٧ ، و الحلقة ٥ ص ٥٦٣.

(٢) رحلة القلصادي ص ٣٨ — ٣٩ .

مع هؤلاء الرحالين، فيصبحون بذلك ممن أخذ عنهم بالإجازة، في الوقت الذي يكون فيه أولئك الرحالون قد أخذوا عنهم بالإجازة مع السماع و المجالسة .

و لعل تتبع المدن و القرى التي أخذ فيها هؤلاء الرحالون عن جم غفير من العلماء في طريقهم إلى الحرمين الشريفين، موضوع لا تتسع له هذه المداخلة لسعته و تعدد مناحيه (١)، لذلك أراني مقتصرا فقط على ما أخذوه في مكة المكرمة و المدينة المنورة بذكر الشيوخ والعلماء الذين لازموهم سواء قبل أداء المناسك أو بعدها، مع ذكر العلوم التي أخذوها عنهم .

٣ – حرص الرحالين المغاربة على الأخذ عن علماء الحرمين الشريفين :

و حِرْصُ الرحالين المغاربة و الأندلسيين على الأخذ عن مشايخ الحرمين الشريفين ليس وليد القرون التي تنتمي إليها هذه الرحلات التي نحن بصددها – و إن كان في هذه القرون قد زاد و انتشر على نحو ظاهر – و إنما يرجع إلى قرون قبل ذلك، حتى إنهم اختاروا مذهب الإمام مالك رحمه الله لكثرة ترددهم على المدينة المنورة، سواء في حياة الإمام مالك، أو في حياة تلاميذه من بعده، و قد قال ابن

---

(١) قام الدكتور الحسن الشاهدي بعرض رحلات كلٍّ من : ابن رشيد السبتي و العبدري و أبي القاسم التجيبي و ابن بطوطة ، في أطروحته عن أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ، فليراجع هناك في ١٤١/١ وما بعدها.

خلدون في هذا الشأن :" و أما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب و الأندلس و إن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل، لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز و هو منتهى سفرهم و المدينة يومئذ دار العلم ، و منها خرج إلى العراق، و لم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة و شيخهم يومئذ و إمامهم مالك، و شيوخه من قبله و تلميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب و الأندلس ." (١)

و قد ظل حرص المغاربة و الأندلسيين على أخذ العلم بالمدينة المنورة قبل المناسك أو بعدها إلى عهود متأخرة، بقدر ما ظل عزوفهم عن السفر إلى العراق إلا في القليل قائما أيضا، رغم شهرة علماء بغداد و الموصل و البصرة . و لعل هذا العزوف فيما أعتقد يرجع – إضافة إلى ما ذهب إليه ابن خلدون – إلى ما كتبه أحد مؤسسي رحلات الحج، و أعني به ابن جبير (٢)، أما أبو بكر بن العربي فإعجابه ببغداد ظاهر بَيِّنٌ فيما كتبه، و ربما كان حال بغداد حين دخلها ابن العربي أفضل حالا مما آلت إليه حين دخلها ابن جبير من بعد، فالفارق الزمني بينهما

(١) المقدمة ص ٤٤٩.

(٢) يرى الأستاذ محمد المنوني رحمه الله بأن ابن جبير هو أول من ألف رحلة حجازية ، راجع دراسة له تحت عنوان " الجزيرة العربية في الجغرافيات و الرحلات المغربية و ما إليها " في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد ٢٩ سنة ١٩٧٨ الصفحة ١٥٣ ؛ بينما يرى أغلب الباحثين العرب و المستشرقين بأن أول من كتب رحلة حجازية هو أبو بكر بن العربي المعافري ، راجع بتفصيل تاريخ الجغرافية والجغرافيين العرب ، ص ٣٩٥ و ص ٤١٢ ، و راجع أيضا أدب الرحلة بالمغرب ٦٠/١.

ينيف عن نصف قرن من الزمان، ثم إن رحلات الحج ازدادت و تكثفت بعد ابن جبير مباشرة، وكانت رحلته المدونة منتشرة بين الناس، على حين أن رحلة ابن العربي " ترتيب الرحلة " ضاعت في حياته [1]، فقد قال ابن جبير عن أهل بغداد :" و أما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياءً، ويذهب بنفسه عُجبا و كبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة و الإباء، يستصغرون عمَّن سواهم الأحاديث و الأنباء، قد تصور كل منهم في معتقده و خلده أن الوجود كلَّه يصغر بالإضافة إلى بلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا و عبادا سواهم، يسحبون أذيالهم أشرا و بطرا، و لا يغيرون في ذات الله منكرا، يظنون أسْنَى الفخار في سحب الإزار، و لا يعلمون أن فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، و ما منهم من يحسن لله فرضا، فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، و على يدي مخسر للميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف، و لا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف، لا يبالون في ذلك بعيب، كأنهم من بقايا مدْين قوم شعيب، فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلا من يعامل بنفاق أو يهشُّ له هشاشة استنفاع و استرفاق، كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على

(١) قانون التأويل ص ٦٧ – ٦٨ ، و راجع مقال الدكتور عز الدين عمر موسى في الحلقة الأولى ص ١٣ و ما بعدها.

شرط اصطلاح بينهم واتفاق ." (١)

لذلك لا نرى أحدا ممن دوَّن رحلته من أهل القرنين الثامن و التاسع قد دخل بغداد أو زارها إلا ابن بطوطة، و قد نقل شيئا من كلام ابن جبير فيها (٢) إشارة منه إلى تغيُّر حالها و انطماس معالمها، و لم يذكر شيئا مما يمكن أن يُلْتَفَتَ إلا بعض المساجد و الجوامع، و ما عدا ذلك فهو حديث عن الحمّامات و القبور، و عن ملكها في تلك المرحلة، أما العلم و العلماء فلم يشر إلا إلى أبي حفص عمر بن علي القزويني الذي سمع عنه مسند أبي محمد الدارمي (٣) .

و لعل ما سطره ابن جبير أثر بشكل أو بآخر على الرحالين المغاربة و الأندلسيين، فاقتصروا على الأخذ بالمدينة المنورة كما قال ابن خلدون و لم يتجاوزوها إلى أرض العراق، وهذا ما كان ينشط الحركة العلمية في المدينة المنورة و في مكة المكرمة على حد سواء، لأنها كانت ملتقى العلماء و الطلبة من كافة أرجاء العالم الإسلامي طوال السنة، و يزداد الأمر أكثر قبيل موسم الحج و أثناءه، حيث يقبل العلماء في مواكب الحجيج، فيشيع خبر مقدمهم فتتقاطر عليهم أفواج الطلبة و المتعلمين للسماع عنهم و الجلوس إليهم طوال الشهور

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٦٨ – ٢٦٩.

(٢) راجع دخول ابن بطوطة إلى بغداد في رحلته ٢٤٢/١ ، و الكلام الذي نقله عن ابن جبير واردٌ في رحلته ص ٢٦٧.

(٣) راجع ذلك مفصلا في رحلته ٢٤٤/١.

التي يقضونها بالحرمين الشريفين، و إذا آثر أحد من العلماء المجاورةَ، فيكون آنئذ غنيمة لطلبة العلم فيلازمونهم مدة مجاورتهم تلك .

يقول شيخنا أحمد حدادي في هذا الصدد :" بما أن مكة المكرمة و المدينة المنورة كانتا منتهى آمال القاصدين من المغرب و الأندلس، و أقاصي الشرق، فإنهما كانتا تحويان من أصناف العلماء و الفقهاء ما لا يحصيه عدٌّ، و كان هؤلاء يعقدون مجالس للخاص و العام، ونجد من بينهم نساء عالمات يجلس إليهن هؤلاء الآتون من كل فج عميق، و قد وصفهما العبدري و ابن بطوطة وأبو القاسم التجيبي و البلوي و غيرهم ممن قاموا بالرحلات الحجازية، فأجادوا في وصف عمرانهما و نشاطهما الثقافي و العلمي، وكان من أهم مدارس مكة آنئذ مدرسة ابن الأرسوفي و مدرسة ابن أبي زكرياء و المدرسة المظفرية و مدرسة الزنجبيلي و غيرها ." (١)

و مع العدد الهائل من العلماء و الفقهاء و الزهاد و الصالحين ممن كانت تعج بهم المدينة المنورة و مكة المكرمة حتى أطنب أصحاب رحلات الحج في ذكر علمهم و فضلهم و صلاحهم و ورعهم، فإن ما أورده العبدري في رحلته عن حال العلم في الحرمين الشريفين زمن رحلته يجعل المرء في حيرة من أمره، و تزداد حيرته حين يعلم أن رحلة العبدري ابتدأت في السنة التي آب فيها ابن رشيد من رحلته إلى

(١) رحلة ابن رشيد السبتي ٣٧/١ – ٣٨ . و قد تم وقف مدرسة ابن الأرسوفي عام ٥٩١ هـ ، كما تم وقف مدرسة أبي علي بن ابن أبي زكريا عام ٦٣٥ هـ ، و أما مدرسة الزنجبيلي فقد تم وقفها عام ٥٧٩ هـ، أما مدرسة المظفرية و تعرف أيضا بالمنصورية فلا أعرف متى تم وقفها.

بلده، أي عام ٦٨٨ للهجرة، و التي ذكر فيها أنه أخذ خلالها عن اثني عشر عالما بمكة المكرمة [(١)] و عن ثمانية علماء بالمدينة المنورة [(٢)]، بينما العبدري يقول عن مكة المكرمة :" و بالجملة فقد ضعف العلم بتلك البلاد لضعف العيش بها، و الناس مع الدنيا و صاحبها، والحكم لله مدبر الأمور ." [(٣)]، و يقول عن المدينة المنورة ." و لم أر بالمدينة مع شدة البحث و إلحاح الطلب و تكرر السؤال من هو بالعلم موصوف و لا من هو بفن من الفنون معروف ." [(٤)]

فهل هذا من التقصير، أم من سوء التدبير، أم منهما معا ؟ الله أعلم، ولكن سوق العلم و العلماء بالحرمين الشريفين كانت نافقة، وفي هذه المرحلة بالذات، سواء اعترف بذلك العبدري أم لم يعترف، لكنه – رحمه الله – أنفق صفحات طوال في الحديث عن مكة المكرمة و المسجد الحرام و المناسك، بينما لم يخصص للعلم والعلماء سوى فقرة واحدة من كل ذلك الكمّ [(٥)]، ونفس الشيء فعله بالمدينة المنورة إلا أن كلامه عن بعض من لقي بها، أقرب إلى الهجاء منه إلى أي شيء آخر، كما سيأتي في محله من هذه المداخلة

---

(١) نفسه ٤١٠/١ و ما بعدها.

(٢) نفسه ٤١٠/١ و ما بعدها.

(٣) رحلته ص ٢٠٠.

(٤) نفسه ص ٢٠٦.

(٥) ابتدأ الحديث عن مكة المكرمة من الصفحة ١٦٩ ، و أنهاه في الصفحة ٢٠٠.

إن شاء الله [(١)].

و مهما يكن من أمر، فإن من أسمى أماني المغاربة والأندلسيين بعد الحج إلى بيت الله الحرام، أخذ العلم بالحرمين الشريفين، و بخاصة بالمسجد الحرام و المسجد النبوي، ثم بعد ذلك فيما تلاهما من الأماكن و المدارس التي كانت تنتشر بالحرمين كما سبق القول، فضلا عن منازل العلماء، فقد " كان أعلام الحجاج المغاربة يضيفون إلى النسك و الزيارة، العنايةَ بالأخذ – دراية أو رواية – عن مشايخ البلدين المكرَّمَيْن، و لهذا يطفح عدد من الرحلات المغربية بلوائح لأعلام هذه الجهات : المقيمين أو المجاورين، على أن بعض المؤلفين يسجلون لأساتذتهم تراجم قد تشتمل على معلومات تخلو منها المعاجم المَوْضُوعِية، و منهم من يثبت نصوص الإجازات ." [(٢)]

و هذا الحرص يتأكد من خلال هذه الرحلات التي أخذناها نماذج، حيث نجد كل رحالة قد جعل له في أحد الحرمين الشريفين أو فيهما معا – وهو الغالب – شيخا أو شيوخا أخذ عنهم ما شاء الله عز و جل من العلم، بمن في ذلك العبدري نفسه كما سنرى حين كان بالمدينة المنورة .

(١) ابتدأ الحديث عن المدينة المنورة من الصفحة ٢٠١ ، و أنهاه في الصفحة ٢٠٨.

(٢) الجزيرة العربية في الجغرافيات و الرحلات المغربية وما إليها ، محمد المنوني ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد ٢٩ ، ص ١٥٣.

فأبو بكر بن العربي أخذ بمكة المكرمة الحديث النبوي الشريف عن أبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين الطبري الشافعي (٤١٨ – ٤٩٨ هـ) عام ٤٨٩ هـ، و لا تذكر له المصادر التي ترجمت له غيرَه على كثرتها ، لأن أغلب شيوخه كانوا بالعراق والشام، و بعد ذلك بمصر، و يستفاد من بعض هذه المصادر أنه أخذ بمكة المكرمة عن شيوخ آخرين إلى جانب الطبري [(١)] .

و أما شيوخ ابن جبير بمكة المكرمة فهم :

- أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميانجي .

- أبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفنكي .

- أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البغدادي . [(٢)]

و قد ذكر شيخا آخر له بمكة المكرمة و لم يسمِّه، واكتفى بالإشارة إليه بقوله :" كذلك حكى لنا أحد أشياخنا الموثوقين ."[(٣)]

---

(١) قال ابن فرحون :" وسمع بمكة من أبي علي الحسين بن علي الطبري و غيره ." الديباج المذهّب ص ٣٧٦ ، و للإشارة فإن أغلب الشيوخ الذين سنذكرهم قد تم التعريف بهم في هذه الرحلات أو في الدراسات التي و ضعها محقِّقوها في مقدماتها أو في المصادر التي ترجمت لهؤلاء الرحالين ، فلا حاجة إذن إلى تكرار هذه التعاريف في حواشي هذه المداخلة ، تفاديا لإثقالها.

(٢) راجع الإحاطة ٢٣٢/٢ – ٢٣٣.

(٣) رحلته ص ١٣٣.

و في المدينة المنورة أخذ عن شيخين، هما :

ـ أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التونسي .

ـ صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي الشافعي (ت ٥٨٠هـ) .[١]

و أما شيوخ ابن رشيد السبتي بمكة المكرمة فهم :

أ – في الحديث النبوي الشريف :

ـ أبو بكر بن خليل .

ـ أحمد بن أبي بكر العسقلاني (ت ٦٨٦ هـ) .

ـ عبد الحميد بن الزجاج البغدادي .

ـ عبد الصمد بن عساكر الدمشقي (ت ٦٨٦ هـ) .

ـ عبد الله بن سليمان اللَّقَّاني .

ب – في الفقه :

ـ أحمد بن عبد الله الطبري (٦٩٤ هـ) .

ـ عمر بن عبد المحسن الصوَّاف وُلِد عام ٦٩٠ هـ و لم أقف على سنة وفاته .

ـ محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني .

---

(١) ذكر الشيخ الأول في الصفحة ٢٣١ من رحلته ، و ذكر الثاني في الصفحة ٢٤٦ ، وأضاف عن هذا الأدنى بأنه أجازه نظما و نثرا.

ج – في الزهد :

ـ عبد الله بن محمد المرجاني (ت ٦٩٩هـ) .

د – في الأدب :

ـ أحمد بن عثمان الشافعي .

ـ أبو عبد الله بن الحكيم .

و أما شيوخه بالمدينة المنورة، فهم :

أ – في الحديث النبوي الشريف :

ـ عبد الحميد بن الزجاج البغدادي .

ـ عبد الرحيم بن محمد الزجاج (ت ٦٨٥ هـ) .

ـ عبد السلام بن محمد بن مزروع المعروف بعفيف الدين البصري .

ـ أحمد بن عثمان الشافعي .

ـ فاطمة بنت إبراهيم البطائحي (ت ٧١١ هـ) .

ـ أبو نصر عماد الدين الشقاري (ت ٦٩٩ هـ) .

ب – في الفقه :

ـ إبراهيم بن محمد الفاسي .

ج – في الأدب :

ـ علي بن إبراهيم التجاني . (١)

و أما العبدري فقد أوردنا ما قاله عن العلم و العلماء بمكة

(١) راجع رحلة ابن رشيد السبتي ٤٠٤/١ وما بعدها و قد عرَّف شيخنا أحمد حدادي بكل شيخ من هؤلاء الشيوخ تعريفا وافيا.

المكرمة، فلا حاجة إلى تكراره هاهنا، و أما بالمدينة المنورة، فبعد أن تحدث عن إمام و خطيب المسجد النبوي بما تحدث به، اهتدى إلى الشيخ عفيف الدين أبي محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع البصري التمّار، فاستجازه، فأجازه لفظا في كل ما يحمل [(١)]، و قد أخذ عنه شيئا من حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم .

و عفيف الدين البصري هذا، هو أحد شيوخ ابن رشيد السبتي في الحديث النبوي الشريف، أخذ عنه في نفس الأيام التي أخذ فيها عن سواه من المشايخ رجالا و نساء بالمدينة المنورة، و قد قال عنه : "الشيخ الإمام و المحدث الفاضل الثقة الفرضي النحوي ." [(٢)]، ولعل في هذه التحلية ما يبين قدر هذا الشيخ، لأن ابن رشيد لا يطلق – على عادته – الألقاب و النعوت على عواهنها . و إذا قارنّا كلامه بكلام العبدري نجد الفارق واضحا، رغم اختفاء حدة لسان العبدري التي تؤْثر التهجم و التّهكُّم أحيانا كثيرة، فقد قال فيه :" فسألت عنه حتى وجدته في حرم رسول الله صلى الله عليه و سلم تجاه الروضة المقدسة زادها الله جلالة، فألفيته شيخا ركينا ذا سمت و هيئة ولقاء جميل، رحل في البلاد و لقي الناس و سمع من الشيوخ و استقر به القرار آخراً بالمدينة مجاورا ." [(٣)]

---

(١) رحلة العبدري ص ٢٠٧.

(٢) راجع رحلة ابن رشيد السبتي ٤٠٧/١ ، و فيها تعريف مفصل به و بشيوخه و تلاميذه.

(٣) رحلته ص ٢٠٧.

فهو لم يذكر ألقاب الشيخ العلمية أو قل تخصصاته بلسان عصرنا، مثل ما فعل ابن رشيد حين حلاّه بالمحدِّث الفاضل الثقة والفرضي و النحوي، و إنما اكتفى بوصف مظهره الخارجي و لقائه الجميل، و الله أعلم بما كان يدور في خَلَدِ العبدري و هو يكتب عن هذا الشيخ، و يبدو أن هيبة الرجل على أي حال أمسكت عليه لسانه اللاّذع .

و أما من التقى به أبو القاسم التجيبي في مكة المكرمة من الشيوخ و الزهاد، فهم :

- العماد أبو الحسن الطبري المكي .
- أبو الحسين الطبري المكي، و هو شقيق العماد الطبري .
- أبو إسحاق الطبري .
- الفخر أبو عمرو عثمان التوزري .
- أبو الفداء إسماعيل المصري .
- العفيف عبد الله الدلاصي المصري .
- شمس الدين أبو عبد الله الجياني .
- نجم الدين العجمي .
- أبو عبد الله بن مطرف الإشبيلي الأندلسي .
- أبو محمد الهروي .

ـ أبو علي النجار .

ـ ابن صدقة البصري .[(١)]

و أما من لقيه بالمدينة المنورة، فلا نعرف عنهم شيئا لأن الجزء الذي يتحدث فيه التجيبي عن المدينة المنورة هو الجزء الثالث من رحلته و يعتبر لحد الآن مفقودا، لكننا نعلم شيخا واحدا، هو ابن صدقة البصري الذي لقيه بمكة المكرمة و قال بأنه لقيه ثانية بالمدينة المنورة [(٢)]، و أغلب هؤلاء الشيوخ أخذ عنهم الحديث النبوي الشريف، إلا أبا عبد الله الجياني، فقد أخذ عنه السيرة النبوية و الفقه، ومنهم من لقيه في الطواف و دعا له بالخير .

و أما شيخا خالد بن عيسى البلوي بمكة المكرمة، فهما :

ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المكي المشهور بخليل .

ـ أبو العباسي أحمد بن إبراهيم الشافعي .[(٣)]

و أما شيخاه بالمدينة المنورة، فهما :

---

(١) راجع مستفاد الرحلة والاغتراب ص ٣٦٢ و ما بعدها ، و راجع أيضا " الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى " للأستاذ محمد بن تاويت ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة الدار البيضاء ١٩٨٣ . ٦٣٦/٢ و ما بعدها ، و راجع أيضا أدب الرحلة بالمغرب ٢٣٦/١ و ما بعدها.

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب ص ٤٥٧.

(٣) تاج المفرق ٣١٤/١.

ـ أبو محمد بن أسعد بن علي اليَافِعي اليمني الشافعي .

ـ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الخزرجي .(١)

و أغلب ما أخذه البلوي عن هؤلاء الشيوخ هو الحديث النبوي الشريف، إلا أبا عبد الله المعروف بخليل، فقد أخذ عنه الحديث والفقه معا .

و أما ابن بطوطة فقد لقي جَمًّا غفيرا من العلماء و الشيوخ والزهاد و الصلحاء بمكة المكرمة، فنجده أحيانا يصرح بالذين أخذ عنهم، لكنه في الغالب لا يصرح، و إنما يكتفي بالإشارة إلى أنه رآه أو لقيه أو دعا له (٢)، إلا أننا نعرف أحيانا الذين أخذ عنهم و إن لم يصرح بذلك، و ذلك من خلال رحلة البلوي التي التقى فيها بأولئك الشيوخ أنفسهم، فقد كانت رحلتاهما متزامنتين، و من هؤلاء الشيوخ:

ـ نجم الدين محمد بن الإمام محي الدين الطبري .

ـ محمد بن عثمان البغدادي .

ـ بهاء الدين الطبري .

(١) نفسه ٢٩٢/١ – ٢٩٣ ، و للتفصيل في كل شيوخ البلوي الذين أخذ عنهم في رحلته ذهابا و إيابا ، راجع مقدمة الحسن السائح لهذه الرحلة ٦٠/١ و ما بعدها.

(٢) راجع رحلة ابن بطوطة ١٧٢/١ – ١٧٣ ، وفي كثرة من لقيه في رحلته قال ابن الخطيب :" و لقي من الملوك و المشايخ عالَما ." الإحاطة ٢٧٣/٣.

- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المشهور بخليل .

- زين الدين بن الإمام محي الدين الطبري .

- عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي المشهور باليافعي .

- أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق .

- أبو مهدي عيسى بن حَرْزُون المكناسي .

- شهاب الدين النويري .(١)

و أما من لقيه بالمدينة المنورة، فهم كُثْرٌ، و منهم من تكرر لقاؤه به بمكة المكرمة، وهم :

- أبو العباس أحمد بن مرزوق .

- سعيد المراكشي الكفيف .

- عيسى بن حرزون المكناسي .

- أبو محمد الشروي .

- الفقيه أبو العباس الفاسي .(٢)

و يظهر أن اهتمام ابن بطوطة كان في الغالب منصبا على

(١) نفسه ١٦٧/١ و ما بعدها ، حيث نجد أسماء أخرى لكنه لم يصرح بأنه أخذ عنها.

(٢) نفسه ١٤١/١ و ما بعدها.

رواية الحديث النبوي الشريف، كباقي الرحالين المغاربة والأندلسيين.

و أما القلصادي، فإنه قد لقي بمكة المكرمة شيوخا عدة، لكنه لم يصرح بأنه أخذ الحديث النبوي الشريف إلا عن أبي الفتح الحسني المراغي المدني (١)، و ما عداه فإنه يصرح فقط بمناقشتهم، وتبادل أطراف الحديث معهم، لأن بعضهم كان له به سَبْقُ معرفة، وهم :

- قاسم بن الحسين التلمساني .
- أبو الفضل قاسم بن أبي حديد القسنطيني .
- الشيخ أحمد الزواوي .
- الشيخ عيسى الزواوي .(٢)

وكل هؤلاء المذكورين، هم من الحجاج أو المجاورين بمكة المكرمة، و تدل نسبتهم على أنهم من المغرب الأوسط / الجزائر حاليا، أو من تونس، و لعل هذه المعارف هي التي مهدت للقلصادي الاستقرار فيما بعد نهائيا بتونس حتى وافته المنية بها .

و أما بالمدينة المنورة، فإن القلصادي لم يصرح بأنه قد أخذ بها العلم عن أحد، لأن حديثه عنها منذ دخوله إليها إلى خروجه منها لم

(١) رحلته ص ١٣٥.

(٢) نفسه ص ١٣٤ – ١٣٥.

يتعدَّ بضعة أسطر، و لولا كثرة هوامش المحقق لما وصل إلى صفحتين و نصف الصفحة .

٤ – اهتمام الرحالين المغاربة برواية الحديث النبوي الشريف :

و يظهر لنا من خلال هؤلاء العلماء و الشيوخ، و ما صرح به هؤلاء الرحالون أن الاهتمام الأكبر لديهم كان منصرفا إلى رواية الحديث النبوي الشريف و التفقه فيه، و معرفة مُشْكَله فضلا عن سنده ورجاله،بل إن طلب الحديث النبوي كان الشغل الشاغل لِجُلِّ الرحالين المغاربة والأندلسيين. فهذا ابن رشيد ؛ ما كانت غايته من طلب العلم بالمشرق إلا رواية الحديث النبوي و الإعلاء من سنده فيه، يقول :" على أني لم أوافِ هذا العلم (يعني الحديث النبوي الشريف) بأفقنا إلا كاسدة سوقه، غامرة سوقه، متقلصا بسوقه، قد تلفت بضائعه، و درست صنائعه، و قطع الجهال أسلاكه، و لم يملك العلماء في بلادنا مِلاكه، حتى تفرقت أنفاسه، وكسفت شموسه، وخسفت بدوره، فلم يلتمحوا لها نورا، و لا الْتَمَعُوا شعاعا، فعُطلت فوائده، و نثرت فرائده، و تُنُوسِيت مقاصده و مَعَانيه، و أقفرت معاهده ومَغانيه، وكُرِهَ مُعانيه، و أُحِبَّ مُنَاوِيه، و أخلفت نجومه، ولم تتوكَّف غيومه، فَصَوَّحَت خضرته، و صرحت بشكوى الظلماء روضته، و غاب عن المتوسِّد إِبْرادُه، و غاصت فلم تَبِضْ بِبَرْضٍ بِرَادُه، اللهم إلا أني لما رحلت، وجدت منه معينا فوردت ..." (١)

(١) إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح ، تحقيق الشيخ محمد الحبيب بلخوجة ، الدار التونسية للنشر ، بدون تاريخ ، ص ٤.

و هـذا الكـلام الـذي أَوْدَعَـهُ ابـن رشـيد مقدمـة كتابـه " إفـادة النـصيح في التعريـف بـسند الجـامع الـصحيح " ، يُظْهِـر لنـا مـدى الهمِّ الـذي كـان يـشغل بـال المغاربـة ، و نـوعَ العلـم الـذي كانـت تـشد مـن أجلـه الرِّحـال ، و يغـترب أصـحابه لـسنوات طـوال ، فـرغم كـون نـسخ صـحيحي البخـاري و مـسلم متـوافرة و متداولـة بـين النـاس في الغـرب الإسـلامي ، بـل و كانـت في سـبتة بلـدِ ، ابـن رشـيد ، إحـدى أنْفَسِ أصـول صـحيح البخـاري – كمـا سـأبَيِّن – ، إلا أن المغاربـة كـانوا يريـدون سمـاع الحـديث النبـوي الـشريف مـن أفـواه الرجـال المحـدِّثين المـسْنِدين ليتـصل سـندهم بهـم ، ليكونـوا حلقـة في سلـسلة رواة الحـديث الـشريف حتـى ترفـع إلى رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم . ليكـون ذلـك الترابـط العلمـي بـين المـشرق والمغـرب الإسـلاميين عـن طريـق التتلمـذ عـن المـشارقة الـذين عـاش الإمـام البخـاري بـين ظهـرانيهم ، وتـرك فـيهم مـن تـرك مـن التلاميـذ الـذين تتلمـذ علـيهم طلبـة الحـديث النبـوي الـشريف مـن مختلـف الأصـقاع و البقـاع في غير كلل و لا ملل .

يقـول الـدكتور عبـد الله الترغـي عـن مقدمـة ابـن رشـيد هـذه : "وتكتـسي هـذه المقدمـة أهميـة ، لمـا تمثلـه مـن قلـق ابـن رشـيد و تـصوره للوضـع المخيـف للروايـة و الإسـناد في المغـرب ، وهـو تـصور إن كـان لـه مـا يـبرره مـن غيـاب المـشيخة المـسنِدة الـتي عرفهـا الغـرب الإسـلامي خـلال القـرنين الـسادس و الـسابع ، و غيـاب سـوق الروايـة بالأنـدلس مـع سـقوط حواضـره ، فإنـه لم يكـن الوضـع بهـذا المـستوى الـذي يبـالغ فيـه ابـن رشـيد ، فقـد كانـت سـبتة – بلـدُه – لا تـزال بخـير ، وبهـا بقيـة مـن رجـال

الرواية و الإسناد، غير أن المشرق تظل له الأسبقية في ميدان الرواية، ويظل ملتقى المحدِّثين و أرباب الإسناد، و ذلك لاتساع رقعته و سهولة الاتصال بعلمائه و توفر مجالس درسه، و رعاية العلم في أكثر حواضره، و من الطبيعي أن يتطلع إليه متشوق للرواية كابن رشيد وغيره ."(١)

بل إن المغاربة لم يتوقفوا عند حدود الحواضر المشرقية التي وفدت عليها كتب الحديث مع من وفد عليها من المحدِّثين، وإنما تجاوزوا ليأخذوا الحديث النبوي من مساقط رؤوس أئمة الحديث أنفسهم، و عمّن تتلمذ عليهم من أهل بلدهم، لذلك فإن " القرنين السادس والسابع الهجريين عرفا انتشارا واسعا لعلماء بلاد المغرب في المشرق، و قد بلغ هؤلاء إلى ما وراء النهر ووصلوا إلى الهند و الصين وسبقوا ابن بطوطة إلى دخول تلك الأراضي النائية، ومن الغريب أن أخبار التتر المخيفة لم تكن تصرفهم عن وجهتهم، و قد سمّى ابن الشَّعَّار بعض الذين قتلهم التتر، و يبدو أن من أسباب اقتحامهم تلك المخاطر، الوصول إلى مواطن المدَوِّنين الأولين للحديث كبخارى وقزوين و نَسَا و نيسابور و ترمذ و غيرها ." (٢)

فابن رشيد أراد أن يحيي سنّة المحدِّثين المغاربة القدماء –

---

(١) فهارس علماء المغرب ، ص ٥٦١.

(٢) تراجم مغربية من مصادر مشرقية ، جمعها و رتبها و قدم لها و علق عليها الدكتور محمد بنشريفة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ٦ – ٧ ، و أما ابن الشّعّار المشار إليه فهو أبو البركات المبارك بن أحمد ولد عام ٥٩٣ هـ و توفي عام ٦٥٤ هـ.

وكذا المشارقة – بالرحلة في طلب الحديث، ووصل السند المغربي بالسند المشرقي، ليتصل سند حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم على نسق واحد، ليس فيه انقطاع و في كافة أرجاء العالم الإسلامي، لأنه من المعروف أن تحصيل الحديث النبوي و التثبت من رواياته وطرقه و طلب العلوّ في سنده، والبحث عن أحوال رجاله و رواته، مما اشتهر به المغاربة منذ القديم حتى عرفوا بعنايتهم بالحديث و طرق روايته مقتدين في ذلك بعمل السلف الصالح [(١)]، و لهذا فإن الرحالين كانوا يعتزون " بما حصلوا عليه من أسانيد عالية، و يَعُدُّون ذلك أهم مكسب لهم في رحلاتهم، و مصدر فخر لهم على غيرهم، و يشعر الرحالة بزهو كبير حين ظفره بسند عال ." [(٢)]

و بالتالي فإن الرحالة يكتسب مصداقية برحلته في طلب الحديث، فهو لم يظفر بما ظفر به إلا بعد مشقة السفر و عَنَتِهِ، كلَّفته راحته و ماله و عمره مع الصبر على الفراق عن الأهل و الوطن ؛كل هذا خدمة لسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم التي يحرص بكل ما يملك على أن تظل جذوتها مشتعلة و متَّقدة أمام الدرب الذي ستسلكه الأجيال، يُسَلِّمُ مِشْعَلَها الشَّيْخُ لتلميذه و يتوارثونها أبا عن جد دون انقطاع، لأن وَصْل السند بين المشرق و المغرب يحمل في طياته توحيد عرى الإسلام و المسلمين ؛ فهمْ يُعَلِّمُ بعضهم بعضا، فيستفيدون

(١) أدب الرحلة بالمغرب ٩٠/١.

(٢) نفسه ٩١/١.

و يفيدون، لكي يكونوا على الخير أعوانا .

فلا عجب – كما قال الشاهدي من قبل – أن يحس الرحالة المغربي بزهو و طمأنينة حين يظفر بسند عال، لأنه لا يرفع قيمته العلمية فحسب، و إنما يضعه ضمن من شَرُفَ بحمل الحديث النبوي الشريف، فابن رشيد حين ظفره بسند انفرد به عن باقي أهل زمانه، وفاق به شيوخه و أقرانه، ابتهج فقال :" فأقرب إسنادٍ، وقع لشيخنا أبي فارس – يعني عبد العزيز بن يَتُّه الهواري – مد الله مدته و وصل عزّته، و هو أقرب إسناد يمكن في الدنيا شرقا و غربا، فقد أنضينا المطي في طلب أعلى منه فما وجدنا، فخذوه بغير شيء و انتهزوه فرصة، فقد كفاكم كُلَفَ الرحلة ما كتب به إليه من مدينة دمشق أبو نصر ابن مميل إجازة، قال : كتب إلينا أبو الوقت من بغداد إجازة قال : أنا الداودي سماعا، أنا الحمويي سماعا، أنا الفَرَبْرِي سماعا، أنا البخاري سماعا . فشيخنا أبو فارس في هذا الإسناد مُسَاوٍ لشيخ شيخه الحافظ أبي بكر ابن الجد في العدد إلى البخاري، و من يأخذه عنه، فكأنه أخذه عن الحافظ أبي بكر رحمه الله ." (١)

و هذا الاعتزاز نفسه نجده أيضا عند أبي القاسم التجيبي الذي كان الحديث النبوي الشريف وروايته و درايته شغله الشاغل هو أيضا في رحلته، حتى إنه ألف برنامجا إلى جانب رحلته، ترجم فيه

(١) إفادة النصيح ص ١١٤ . و أبو فارس المذكور هو أحد أهم شيوخ ابن رشيد ، وهو عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد العزيز الجزيري ولد عام ٦١٧ هـ و لم أقف على سنة وفاته ، و راجع ترجمته مع مصادرها في رحلة ابن رشيد ١ / ٢٦٧.

لشيوخه الذين روى عنهم ؛ و اتبع فيه منهج المحدِّثين، آملا أن يكون من زمرتهم، فقال :" رأيت أن أتعلق بأهدابهم و أتمسك بأذيالهم، وأستضيء بأنوارهم، و أقتدي بآثارهم ." (١)، و قد ذكر فيه أزيد من مائة و ثمانين مصنفا أخذها عن هؤلاء الشيوخ و أكثرها "من تخريج المشارقة تأليفا و سندا، و معظمها مما أخذه في رحلته عن شيوخ مصر والشام و الحجاز ." (٢)

فقد قال التجيبي حين قرأ صحيح البخاري على عماد الدين أبي الحجاج يوسف الشقاري في مجالس عدة كان أولها غرةَ ربيع الأول من سنة ٦٩٧ هـ، معتزا بالسند الذي ظفر به بروايته الصحيحَ عن هذا الشيخ :" بهذا الإسناد ساويت في هذا الكتاب كثيرا من أشياخي الشرقيين و طائفة من أشياخي المغربيين ." (٣)

فنلمس في هذا الاعتزاز بالسند العالي لدى هذين النموذجين نوعا من الاعتزاز الجماعي – إن صح هذا التعبير – و بخاصة لدى ابن رشيد في قوله " فخذوه بغير شيء و انتهزوه فرصة فقد كفاكم كُلَف الرحلة ما كتب به ..."، لأن هذا الفوز، فوز للمغاربة والأندلسيين بل و المسلمين جميعهم، لأنه يضمن استمرار السنَّة المطهرة صافية، و هي تنتقل من سلف إلى خلف، من أساتذة مشارقة

(١) برنامج التجيبي نقلا عن فهارس علماء المغرب ص ٨٤.

(٢) فهارس علماء المغرب ص ٢٣٨ ، و راجع أيضا الوافي بالأدب العربي ٦٢٣/٢.

(٣) برنامجه ص ٧١ – ٧٢ ، نقلا عن أدب الرحلة بالمغرب ٢٤٤/١.

إلى تلاميذهم المغاربة الذين يحرصون بدورهم على استمرارها مع تلاميذهم، و هكذا تتصل حلقات حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير انقطاع تجمع شمل الأمة في الغرب الإسلامي على المحجة البيضاء .

و هذا ما يفسر النهضة العلمية الهائلة التي جاءت مباشرة بعد الرحالين الأوائل أواسط القرن السادس و أوائل القرن السابع، واستمرت مع تدفق رحلات الحج من الغرب الإسلامي نحو المشرق خلال بقية القرن السابع و طوال القرن الثامن ليصل الغرب الإسلامي إلى القمة مع بني مرين في عدوة المغرب و بني الأحمر في عدوة الأندلس.

و لعل في هذا ما يَجْلُو حرص الرحالين المغاربة و الأندلسيين على أخذ الحديث و روايته من أفواه أهله و رجاله كما سبق القول، لأنه علم يفرض مباشرة الرجال في التلقي، و منتهى الصدق و الأمانة في النقل و الضبط، لذلك فإننا نجدهم حين يتعلق الأمر بهذا العلم بالذات يسعون ما أمكنهم السعي إلى لقاء الشيوخ و الجلوس إليهم، كما يظهر من خلال القائمة التي سقناها سابقا، ومن خلال ما صرحوا به كلهم في غير ما موضع من رحلاتهم بذكرهم الأفعالَ التي تفيد هذه المباشرة و اللقاء، مثل: " حَدَّثني، و أسمعني، و سمعت، وجلست إليه، وجالسته ... "، كما حرص بعضهم على إتحاف رحلته ببرنامج يسجل فيه تراجم لشيوخه الذين فاته تسجيلها في الرحلة، أو أن المناسبة لم تسمح بذكرها، على نحو ما فعل التجيبي في برنامجه،

أو خالد بن عيسى البلوي حيث قال في رحلته :" ثم تابعت لقاء العلماء والمحدثين، و استقريت المجاورين منهم جماعةَ جُمْلَةٍ يضيق هذا المجموع عنهم و يتسع برنامج روايتي لهم، فهم فيه على التمام والكمال ." (١)

و قد نتج عن هذا الحرص على رواية الحديث النبوي الشريف، أن حصل للمغاربة سندهم العالي في روايته، و بخاصة صحيح البخاري الذي كان اعتناؤهم به قد بلغ مداه إلى جانب العناية بصحيح مسلم، فتكونت لديهم مشيخة شُدَّت إليها الرحال في مراكز علمية مختلفة بالمغرب و الأندلس و بخاصة في سبتة، و في هذه المرحلة التي نحن بصددها مع هذه النماذج من الرحلات .

فابن رشيد السبتي مثلا – و كما سبقت الإشارة – حصل على سنده العالي في رواية صحيح البخاري، و ألف بذلك كتابه المشار إليه "" إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح "" خصيصا لولده محمد، و قد عرّف في هذا الكتاب بستة عشر شيخا قسّمهم على سبع حلقات تصل بينه و بين أبي عبد الله الفربري الذي كانت روايته يومئذ هي " الطريق المعروف اليوم إلى البخاري في مشارق الأرض ومغاربها باتصال السماع ... و على روايته اعتمد الناس لكمالها وقربها و شهرة رجالها ." (٢)

(١) تاج المفرق ٣١٣/١.

(٢) إفادة النصيح ص ١٨ ، و هناك رواية النسفي التي دخلت إلى المغرب ، و اعتمد عليها المغاربة في =

و الحلقة التي يتصل سند ابن رشيد بها تتمثل في أبي عبد الله بن شريح الإشبيلي، و أبي عبد الله بن منظور القيسي و أصبغ بن راشد اللخمي، و هؤلاء ممن أخذ الصحيح بمكة المكرمة عن أبي ذر الهروي الذي اشتهرت روايته عما سواها، و التي أخذها عن إبراهيم المستملي، وأبي محمد الحمويي و أبي الهيثم الكشميهني عن الفربري عن الإمام البخاري .

و قد احتفظ لنا ابن رشيد في " إفادة النصيح " بنص فريد يوضح فيه منهج أبي ذر الهروي في تحقيق أصله و تصحيحه روايةً عن الثلاثة المذكورين : المستملي و الحمويي والكشميهني ، حيث يقول :" قرأت بخط أبي بكر بن خَيْرٍ و أنا به جد خبير مما نقله من خط الشيخ الراوية أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى ابن منظور رحمه الله : أبو ذر عن أشياخه الثلاثة : أبي محمد الحمويي و أبي إسحاق المستملي، و أبي الهيثم الكشميهني، غير أن سواد الكتاب على روايته عن أبي محمد و أبي إسحاق، فإذا انفرد أحدهما و اختلفا في شيء فعلامة الحمويي " حا " و علامة أبي إسحاق : "الهمزة و السين "، فإذا اتفقا و خالفهما أبو الهيثم جعل : " صح " على موضع الخلاف، وكتب رواية أبي الهيثم في الحاشية و علامته " ها "، وكذلك علامته فيما ينفرد به ." (١)

=

أسانيدهم ، و قد جاء في فهرسة القاضي عياض :" لم تدخل هذه البلاد رواية البخاري إلا من هذين الطريقين ." ، يعني طريق الفربري و طريق النسفي ، راجع فهارس علماء المغرب ص ١٢٩.

(١) إفادة النصيح ص ٤٥ ، و راجع أيضا ما قاله الترغي في فهارس علماء المغرب ص ٥٢٤.

و هـذا الأصـل الـذي يتحـدث عنـه ابـن رشـيد، أي أصـل أبـي ذر الهـروي الـذي كتبـه بخـط يـده و سمعـه علـى مـشايخه الثلاثـة، انتقـل بعينـه إلى المغـرب بعـدما اشـتراه الأمـير ميمـون بـن ياسـين المرابطـي مـن أبـي مكتـوم عيـسى بـن أبـي ذر الهـروي، حـين حجـه – و كـان أول أمـير مغربـي يحـج – عـام ٤٩٧ هـ، فقـد " كـان لهـذا الأمـير المرابطـي اعتنـاء كـبير برواية الحـديث عـن كبـار شـيوخه في المغـرب و المـشرق، و اهتمـام خـاص باقتنـاء أصـوله، و إسـهام طيـب في إِسْـمَاعِهِ، وهـو يـستحق أن يُعَـدَّ مـن طبقـة معاصـريه مـن المحـدِّثين كـأبي علـي الـصدفي و أبـي بكـر بـن العربي ." (١)

و قـصة هـذا الاقتنـاء، أنـه لمـا " فـرغ ميمـون بـن ياسـين مـن سمـاع صـحيح مـسلم علـى أبـي عبـد الله الطـبري، أراد أن يـسمع صـحيح الإمـام البخـاري علـى أشـهر مـن يرويـه يومئـذ، وهـو أبـو مكتـوم عيـسى بـن أبـي ذر الهـروي، فكـان لـه ذلـك، و يَحْـسُنُ هنـا أن ننقـل كـلام الحـافظ الـسِّلَفِي الـذي حـج في الـسنة الـتي حـج فيهـا ميمـون بـن ياسـين و هـي سـنة ٤٩٧ هـ، قـال في كتابـه " الـوجيز في ذكـر الْمُجَـازِ و الْمُجِيـز" : "و قـد كـان ميمـون بـن ياسـين الـصنهاجي مـن أمـراء المـرابطين، رغِـب في الـسماع منـه (أي مـن أبـي مكتـوم) بمكـة، و اسـتقدمه مـن سـراة بـني شـبابة، و بهـا سـكناه و سـكنى أبيـه أبـي ذر مـن قبـل، فاشـترى منـه صـحيح البخـاري أصـلَ أبيـه الـذي سمعـه علـى أبـي إسـحاق المـستملي و أبـي محمـد الحمـويي

---

(١) الأمير المرابطي ميمون بن ياسين حياته و حجه ، د .محمد بن شريفة ، كتاب مجلة "دعوة الحق" ، العدد العاشر سنة ٢٠٠٢ ،ص ٥ – ٦.

و أبـي الهيـثم الكـشميهني عـن الفربـري عـن البخـاري بجملـة كـثيرة، وسمعه عليه في عدة أشهر قبل وصول الحجيج ."" (١)

و هـذا الأصـل الـذي ذاعـت شـهرته حتـى فاقـت مـا عـداه في المشرق و المغـرب و الأنـدلس، روى عنـه جـم غفـير مـن الأندلـسيين و المغاربـة مـن كبـار المحـدِّثين الـذين كـانوا يعتـبرون المـشيخة الـتي يـسند إليهـا صـحيح البخـاري في الغـرب الإسـلامي يومئـذ، و قـد عـدَّهم ابـن رشـيد فبلـغ عددهم نحوا من أربعة و ثلاثين من كبار المحدثين رجالا و نساء . (٢)

و تجـدر الإشـارة إلى إن هـذا الأصـل ذاتـه، هـو الـذي اعتمـد عليـه ابـن حجـر العـسقلاني في شـرحه لـصحيح البخـاري في كتابـه " فـتح البـاري "، حيـث قـال :" و قـد انتهـى الغـرض الـذي أردتـه مـن التوصـيل الـذي أوردتـه، فلْيقـع الـشروع في الـشرح و الاقتـصار علـى أتقـن الروايـات عنـدنا و هـي روايـة أبـي ذر عـن مـشايخه الثلاثـة، لـضبطه لهـا، و تمييـزه لاختلاف سياقها، مع التنبيه إلى ما يحتاج إليه مما يخالفها ." (٣)

و لا شـك في " أن ظفـر الأمـير ميمـون المرابطـي بهـذه النـسخة ودخولـه بهـا إلى المغـرب، لـه دلالات متعـددة، لعـل أولهـا، بُعْـدُ الـصيت الـذي أصـبح للمغـرب ابتـداء مـن عهـد المـرابطين، و لعـل ثـاني هـذه

(١) نفسه ص ٥٢ – ٥٣.

(٢) راجع القائمة التي حصرها شيخنا محمد بنشريفة في المرجع نفسه ص ٥٦ – ٦٠.

(٣) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، تحقيق عبد العزيز بن باز و محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ ، الجزء الأول ص ٧.

الدلالات، عناية المغاربة المتميزة بصحيح البخاري التي ما تزال مستمرة إلى يومنا هذا ." (١)

و كما اعتنى هذا الأمير المرابطي بصحيح البخاري حتى جلب أصل أبي ذر الهروي معه إلى المغرب، اعتنى أيضا بصحيح مسلم، حيث سمعه مرتين عن محدِّث عصره بمكة المكرمة أبي عبد الله الطبري، في الأولى بقراءة محمد بن هبة الله بن مميل الدمشقي، و في الثانية برواية الطبري عن عبد الغافر الفارسي، و قد اشترى نسخة مشرقية وسمعها عليه، و قد وصف ابن عبد الملك المراكشي هذه النسخة، و قد وقف عليها و رآها، فقال بأنها " مشرقية الخط مجزأة تسعةً و عشرين جزءاً تجمعها ستة مجلدات ." (٢)

كل هذا يشير إلى تتابع أجيال مختلفة من المغاربة والأندلسيين، أمراء و علماء، في العناية الفائقة بحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لا شك في أن هذا العمل الذي قام به الرواد الأوائل ممن كانت له رحلة إلى الشرق في التعامل مع صحيحيّ البخاري و مسلم وسواهما من كتب الحديث، حفَّز الأجيال الآتية من بعدهم على السير على النهج نفسه سواء من جهة الرحلة إلى الشرق

(١) الأمير ميمون المرابطي ص ٦٥.

(٢) الذيل و التكملة س ٨ ق ٢ ص ٤٠٥ ، و قد اتبع ابن عبد الملك نفس النهج الذي أشرنا إليه سابقا في ترجمته للراحلين إلى الشرق للحج و طلب العلم ، فقد قال عن ميمون بن ياسين :" رحل إلى الشرق وحج وأخذ بمكة شرفها الله ." و لمزيد من أخبار هذا الأمير المرابط مع صحيح مسلم ، راجع ميمون ابن ياسين ص ٥١ – ٥٢.

للحج و لقاء أهل العلم، أم من جهة إفادة طلبة العلم في الغرب الإسلامي بهذه المادة العلمية المباركة و الزاخرة بمختلف أصنافها وفروعها .

٥ – حرص الرحالين المغاربة على تأصيل النزعة العلمية في الغرب الإسلامي :

أ – التدريس و الإقراء :

لذلك ما إن يعود رحالة من المشرق إلا و يجلس للإقراء والتدريس في الجوامع الكبرى من الحواضر الأندلسية و المغربية، ليساهم في تكوين الطلبة في مختلف العلوم الشرعية و سواها، طلبا للهدف المنشود الذي حرص عليه كل الرحالين إلى الشرق، و هو الدفع بالنهضة العلمية المغربية و الأندلسية إلى الأمام لكي يظل حبل العلم متصلا، و لكي يرقى الجناح الغربي إلى المستوى الذي كان يأمله هؤلاء الرحالون إلى الشرق، وهم يشاهدون حلقات الدرس زاخرة بالطلبة حول مشايخهم و علمائهم، مستمعين و مناقشين في جو من الجد و المسؤولية حتى خُلِّدت أسماؤهم على مدى الأيام ممن لا تمرُّ ساعة من ليل أو نهار دون ذكر فضلهم على العلم خدمةً للإسلام والمسلمين .

فأبو بكر بن العربي، كان " تحصيل العلم و مدارسته تلقِّيا ومشاركة يملأ كل وقته في رحلته، و كانت إذاعته في الناس همَّه الشاغل منذ أن رجع إلى بلده إشبيلية سنة ٤٩٣ هـ، و إلى وفاته سنة

٥٤٣ هـ، أي فيما يقارب الستين عاما لم يتفرغ لغيره إلاّ في فترة توليه قضاء بلده ." [١] ، و هناك " مؤشرات عديدة على مدى انتشار علمه في حياته مما ينبئك أنه أوقفها على هذا الهدف، من هذه المؤشرات :

أ – عدد الكتب المشرقية التي أدخلها المغرب و تنوعها ، وذكر أنه أتى بكتب لم يسبق إليها أحد .

ب – عدد مؤلفاته و تنوعها و أحجامها . " [٢]

و هذا ما أتى أكله، فقد ترك عدداً جمّا من التلاميذ، و هم من أنجب من عرفه الغرب الإسلامي في مختلف العلوم، و بخاصة علوم الحديث و الفقه و السيرة النبوية، و حسبنا أن نذكر منهم القاضي عياض و ابن بشكوال و ابن مجاهد الإشبيلي و ابن حُبيش وابن خير الإشبيلي و عبد الرحمن السهيلي و سواهم كثير. [٣]

و أما ابن جبير فقد اشتغل إلى جانب الكتابة بالتدريس، وبخاصة بعد رحلته الثانية إلى الشرق، فقد انقطع مدة في فاس للتحديث و رواية ما عنده، فخلّف بذلك تلاميذ له في الغرب الإسلامي

(١) المقال السابق للدكتور عز الدين عمر موسى ، الحلقة الرابعة ص ٤٠٤.

(٢) نفسه ص ٤٠٥.

(٣) لا يخلو مصدر من مصادر تاريخ الغرب الإسلامي و كتب تراجمه من ذكر تلاميذ أبي بكر بن العربي ، و قد أورد أسماء كثير منهم محب الدين الخطيب في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن العربي " العواصم من القواصم " ، منشورات محمد علي بيضون و دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م ص ١٩ ، و قد ذكر عز الدين عمر موسى أن تلاميذ ابن العربي بلغوا نحوا من مائة و خمسة و عشرين تلميذا ، راجع الحلقة الرابعة من مقاله السابق ص ٤٠٦.

أشهرهم أحمد بن عبد المؤمن الشريشي، شارح مقامات الحريري . أما في الشرق فإن أشهر تلاميذه، عبد الكريم بن عطاء الله و رشيد الدين العطار بالإسكندرية والحافظان أبو محمد المنذري و أبو الحسن يحيى بن علي القرشي بالقاهرة [(١)]، و قد ذكر ابن الخطيب بأن الذين أخذوا عنه كثيرون [(٢)].

أما ابن رشيد السبتي، فقد " بقي كرسيه في سبتة بعد أن رجع من المشرق خمس سنوات كاملة، كانت كثيرة الخصب، لأنه كان يدرس و يؤلف و يفتي و يجيب، و لهذا كان صيته ينتشر وشهرته تتسع ... و كان له بفاس مجالس علمية مشهورة، منها مجلسه شرقي صحن القرويين بين الظهر و العصر في الموطأ و صحيح الإمام البخاري . " [(٣)]

و قد كان تلاميذه فرسانا في مختلف العلوم، و بخاصة في علم الحديث و الفقه والقراءات و اللغة و الأدب، و قد أوردت أسماءَهم كتبُ التراجم المغربية و الأندلسية إضافة إلى بعض المصادر المشرقية[(٤)]، هذا إلى جانب المؤلفات التي خلفها و التي ظلت مراجع

---

(١) من مقدمة الدكتور حسين نصار لرحلة ابن جبير ص ٦.

(٢) الإحاطة ٢/ ٢٣٣ – ٢٣٤.

(٣) راجع رحلة ابن رشيد السبتي ١/ ٧٢ – ٧٣.

(٤) راجع قائمة وافية أوردها شيخنا أحمد حدادي في المصدر السابق ١/١٧٧ ، وفيها ذكر للتخصصات التي برزوا فيها.

للطلبة المغاربة آمادا طويلة و كثير منها وصلنا، و هي متداولة بين أيدي الناس اليوم .[(١)]

و أما العبدري، فإنه عاش بعد رحلته " ما يقارب الخمسين سنة، تولّى في آخرها قضاء مراكش، وأصبح مقصد الراغبين في الرواية من المغرب والأندلس، لِعُلُوِّ سنده وكثرة روايته ."[(٢)] وخلّف تلاميذ كثيرين أشهرهم أبو القاسم بن رضوان و أبو عبد الله بن حياتي، نزيل فاس، و أبو عبد الله الزَّقَنْدَرِي و أبو بكر عثمان المسراتي .

و أما أبو القاسم التجيبي فإنه كان بعد عودته من رحلته يحدّث في مدينة سبتة، و" كان يقعد لإسماع الحديث بمسجد زقاق ابن الشَّرَّاك ." [(٣)]، و قد استفاد منه عدد جَمٌّ من الطلبة أصبحوا فيما بعد أعلاما في المغرب و الأندلس، و قد ذكر إبراهيم ابن الحاج النُّمَيْري في مذكراته أنه كان شيخا لعدد من هؤلاء في سبتة [(٤)] . وفيما بَعْدُ " ارتحل إلى فاس فعقد بها مجالس العلم و أفاد الكثير من

---

(١) نفسه ٢٠٤/١.

(٢) فهارس علماء المغرب ص ٥٤٤ ، و راجع قبل ذلك ص ١٣٥ ، من المرجع نفسه.

(٣) بُلْغَةُ الأمنية فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرِّس و أستاذ و طبيب ، لمؤلف مجهول ، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية : ١٩٨٤ ص ٢٨ – ٢٩.

(٤) مذكرات ابن الحاج النميري ، تحقيق ألفريد دي بريمار ، نسخة مرقونة ص ٢٤ و ص٣٠.

الطلاب ." [(١)] . أما مؤلفاته فرغم وصول بعضها إلينا بعدما ضاع معظمها أو أنه لا يزال ينتظر الاكتشاف، فإنه على العموم قد " ضنَّت المصادر علينا بالحديث عن مؤلفات التجيبي، كما ضنَّت علينا من قبل بتفاصيل حياته بعد رحلته المشرقية ."[(٢)]

أما خالد بن عيسى البلوي، فرغم أن المصادر لم تذكر لنا ما إذا كان قد خلَّف تلامذة أم لا أو أنه قد قعد للتدريس في الغرب الإسلامي كما فعل بالإسكندرية مدَّةَ إقامته في مصر، فإن الغالب على الظن أن تَقَلُّدَه المناصبَ الرسمية، كالقضاء في الأندلس والكتابة للحفصيين في تونس [(٣)] ، قد صرفه عن التدريس، وحرم بذلك الناس و الطلبة بخاصة، من الاستفادة من علمه . و مع ذلك فإنه قد خلَّف عدة مؤلفات في الحديث و الأدب و الشعر، منها ما وصلنا ،و منها ما لا يزال مفقودا . [(٤)]

أما ابن بطوطة فلم يؤْثَرْ عنه أنه قد قعد للتدريس، و لا أنه قد خلَّف مؤلفا آخر غير رحلته المشهورة، خاصة و أن أخباره قد انقطعت مباشرة بعد تدوين رحلته تلك، و كل ما عرف عنه بعد ذلك، هو أنه ولي القضاء في بعض مدن المغرب . [(٥)]

(١) أدب الرحلة بالمغرب ٢١٩/١.

(٢) فهارس علماء المغرب ص ٢٣٠.

(٣) مقدمة الحسن السائح لتاج المفرق ٤٣/١.

(٤) نفسه ٣٦/١.

(٥) راجع مقدمة الدكتور علي المنتصر الكتاني لرحلة ابن بطوطة ، ١٨/١.

و أما القلصادي فإنه قد قعد للتدريس في تلمسان، و في تونس، و قد قال في هذا الصدد : " كنت في أثناء ذلك آخذ في القراءة و الإقراء، و سوق العلم نافقة و ينابيع العلم على اختلافها مُغْدِقَةٌ . " (١)، كما أنه درَّس في القاهرة، فخلّف بذلك تلاميذ عدة، من بينهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، وأبو عبد الله الملالي، و أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد البلوي، وسواهم (٢)، هذا إلى جانب عدد جمٍّ من المؤلفات، أغلبها في الحساب والفرائض . (٣)

و ما تجدر الإشارة إليه، هو أن حِرْصَ القلصادي على الإقراء والتدريس رغبةً في إفادة الطلبة، دفعه إلى مغادرة بلده غرناطة نهائيا للاستقرار في تونس، بعدما رأى عجزه الكامل على وقف زحف المسيحيين على ما تبقّى من بلاد الأندلس، منتهزين فرصة الفرقة بين الأمراء المسلمين، و كثرة الدسائس و الاغتيالات في قصر بني الأحمر أواخر عهد تملُّكِهم الأندلس، مما عجل بسقوطها على نحو مريع بعد حضارة إسلامية زاهرة في قلب أوربا طوال ثمانية قرون .

فالملاحظ من خلال النشاط العلمي لهؤلاء الرحالين بعد إيابهم إلى مواطنهم بالغرب الإسلامي، تدريسا و إقراء، أنهم ينقسمون إلى

(١) رحلته ص ١١٥.

(٢) راجع النشاط العلمي للقلصادي في تقديم محمد أبي الأجفان لرحلته ص ٣٢ ، و ما بعدها.

(٣) نفسه ص ٤٠ و ما بعدها.

قسمين :

أ – قسم اشتغل بالتدريس و نشر العلم بشكل مكثف، وبنشاط دؤوب لم يعرف الفتور طوال حياتهم، فكثرت لذلك مؤلفاتهم بقدر ما كثر تلاميذهم الذين ظلوا أعلاما للحركة العلمية بالغرب الإسلامي كله لسنين عديدة و ما يزالون من خلال ما وصلنا من مؤلفاتهم . و الغالب على نشاطهم التعليمي هذا هو تدريس الحديث النبوي الشريف و ما يتعلق به من علوم كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ويعتبر الرعيل الأول من الرحالين رواد هذا القسم ابتداء من أبي بكر ابن العربي، و انتهاء بأبي القاسم التجيبي ؛ و هو الرعيل الذي حمل لواء النهضة العلمية بالغرب الإسلامي، أو ما يمكن الاصطلاح عليه بمرحلة التأسيس لهذه النهضة، فقد كان همهم كله منصرفا إلى العلم و نشره و تكوين رجاله، و تمهيد سُبُلِهِ ليكون في متناول الأجيال اللاحقة من بعدهم .

ب – قسم عاش في مرحلةٍ ظهرت فيها نتائج هذه الجهود ، جهودِ القسم المؤسِّسِ للنهضة العلمية كما قلنا، لذلك نرى رجال هذا القسم الثاني بدلا من أن يتوجهوا إلى التدريس و نشر ما حملوه من العلوم أثناء رحلاتهم إلى المشرق، توجهوا للانخراط في الوظائف الرسمية، كالقضاء و الكتابة في دواوين السلاطين ؛ فطغت بذلك الحياة المهنية على حياتهم العلمية، و هذا ناتج عن الاستقرار السياسي الذي عرفه الغرب الإسلامي على عهد بني مرين و بخاصة في عهد أبي الحسن المريني و ابنه أبي عنان، في عدوة المغرب، و على عهد بني

الأحمر، وبخاصة في عهد أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل و ابنه محمد الخامس المعروف بالغني بالله في عدوة الأندلس . كما أنه ناتج أيضا عن الازدهار العلمي غير المسبوق في العدوتين كليهما، حيث كانت سوق العلم نافقة، فاكتسحت الغرب الإسلامي كله حواضره و قراه وبواديه، وهذا يعتبر نتيجة مباشرة لمرحلة التأسيس السابقة، والتي تحمَّلها الرعيل الأول بربطه عرى العلم و أواصره بين المشرق والمغرب كما بَيَّنا .

ب – إغناء المكتبة المغربية و الأندلسية بالمؤلفات المشرقية :

على أن فضل الشرق على الغرب الإسلامي لا يتوقف عند حدود نشر الرحالين المغاربة لما اكتسبوه من علم أثناء رحلاتهم إلى الحج عن طريق التدريس و التعليم، و إنما يتعدى إلى وسيلة أخرى لها أهميتها الخاصة، و المتمثلة في جلب الكتب و المصادر المهمة إلى المغرب والأندلس، قصد نشرها بين الطلبة و المتعلمين بل ووضعها بين أيدي العلماء أيضا قصد الانتفاع بها، فقد كان الرحالة " يرجع و هو محمَّل بأهم المصادر والتآليف المفيدة لعلماء التقى بهم و استفاد منهم في البلدان التي حلَّ بها، فلم يكن اهتمام الرحالة إذن يقتصر على حصوله على الإجازات و السند العالي فقط، و لكنه يقطع المسافات الطويلة بحثا عن كتاب أو حصولا على نسخة من مؤلَّفٍ معين ... وهكذا كان الرحالة يعود إلى وطنه و هو محمَّل بنوادر المؤلفات والكتب . فكثير من الكتب المشرقية، لولا الرحالة، لما نالت هذه الشهرة، و لما وقع الاهتمام بها في المغرب شرحا و تلخيصا و تقييدا

ونظما و حفظا و تدريسا ."(١)

فكأن الرحالة المغربي أو الأندلسي لا يقنع بما سمعه من هذا العالم أو ذاك فيدوِّنه في أوراقه و كراساته أو يحفظه عن ظهر قلب وهو الأغلب، و إنما يسعى إلى جلب ثمرات العلم والفكر بالمشرق باقتناء الكتب التي أُلِّفت هناك، و نالت استحسان العلماء و الشيوخ . فلا يريد أن يعود إلى الغرب الإسلامي دون أن يستصحب معه هذه الثمرات لِيُشْرِكَ أهلَ بلده مع إخوانهم المشارقة في الاستفادة من هذه التآليف التي كانت و ما تزال دررا في جيد العلوم الإسلامية المختلفة، و في كل الحقب و العصور.

فكتاب " الإيضاح " لأبي علي الفارسي، دخل إلى المغرب بطريقتين، إحداهما من طريق أبي بكر بن العربي الذي " حمل منه أصلا رواه عن الشاعر الأبيوردي عن ابن أخت أبي علي، عن خاله، وقد أسند ابن خَيْر والتجيبي في فهْرَسَتَيْهِمَا لكتاب " الإيضاح " بواسطة أبي بكر بن العربي ." (٢)

كما يرجَّحُ في إطار النحو دائما ، أن تكون ألفية ابن مالك وسائر مصنفاته قد دخلت إلى المغرب أواخرَ القرن السابع و أوائلَ القرن الثامن، لأننا " نصادف في هذا الوقت كثيرا من الأسماء المغربية و الأندلسية الراحلة إلى المشرق، و فيها من اتصل ببهاء الدين

(١) أدب الرحلة بالمغرب ١ /٩٢ – ٩٣.

(٢) فهارس علماء المغرب ص ٤٥٨ ، و راجع مقال عز الدين عمر موسى في الحلقة الرابعة ص ٤٠٥.

ابن النحاس، فأخذ عنه النحو كابن رشيد و أبي القاسم التجيبي، غير أن الرجلين لم يعَيِّنا الألفية و غيرها من مصنفات ابن مالك ضمن لائحة الكتب التي حملاها عن ابن النحاس . " (١)

و يعتبر ابن رشيد السبتي أيضا أول من أدخل كتاب " البدر المنير في علم التفسير "، إلى المغرب، و قد تسلَّم منه نسخة من يد مؤلِّفه أبي العباس أحمد بن سرور المقدسي الحنبلي بالإسكندرية، كما أن التجيبي جلب معه في رحلته كتبا و مؤلفات بخط مؤلفيها . (٢)

كما أن خالد بن عيسى البلوي كان " أول من حمل معه إلى الأندلس و المغرب ديوان ابن نباتة، ومجموعةَ أشعارِ شهاب الدين أبي الثناء الحلبي و عدَداً عدِيدًا من الكتب . " (٣)

فهذه مجرد أمثلة على سبيل الاستئناس، تعبر عن دور الرحالين المغاربة و الأندلسيين في إثراء المكتبة العلمية و الأدبية بالغرب الإسلامي بالكتب المشرقية، و كثير منها كان بخط مؤلفيها، مما كان يحقق السبق العلمي — إن صح التعبير — للمغاربة في الاستفادة من تلك الكتب و المؤلفات بنشرها بين أيدي العلماء و الطلبة و الناس عموما .

(١) فهارس علماء المغرب ص ٤٦٥.

(٢) أدب الرحلة بالمغرب ٩٣/١.

(٣) تاج المفرق ٤٦/١ ، و قد ذكر البلوي ذلك في ٩٣/٢.

٦ – الرحالون المغاربة و صلتهم المبكرة بشيخ الإسلام ابن تيمية :

و لا يفوتني – و أنا أذكر هذا السبق العلمي – أن أشير إلى أن الرحالين المغاربة كانوا من الأوائل الذين اطلعوا على فقه شيخ الإسلام، الإمام تقي الدين أحمد ابن تيمية رحمه الله و على مؤلفاته، وقد كان ذلك على يد أبي القاسم التجيبي الذي لازم الشيخ الإمام أثناء رحلته إلى الحج، حتى إنه لما أشرف على مغادرة الشام راجعا إلى المغرب " زوَّده ابن تيمية بوصية كتبها بخط يده، و دفعها له عند إزماعه المسير من دمشق، و لذلك كان التجبيبي أول من عرَّف بابن تيمية و كتبه و رواياته لدى المغاربة، فوقع الإقبال بالمغرب على هذه الكتب والروايات ." (١)

و قد كان أبو القاسم التجيبي خامسَ خمسةٍ من المغاربة الذين رووا عن الإمام ابن تيمية، فقد سمع عنه بمدرسة القصّاَعين بدمشق الحديث النبوي الشريف، و ثلاثةً من كتبه، و هي :بيان الدليل على بطلان التحليل، و الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، و رفع الملام عن الأئمة الأعلام .

و إلى جانب التجييبي، روى من المغاربة عن الإمام ابن تيمية سماعا، عبد الله بن إبراهيم الزموري، بينما روى عنه الثلاثة الآخرون

---

(١) أدب الرحلة بالمغرب ٢٤٥/١ ، و راجع أيضا ورقات من حضارة بني مرين لمحمد المنوني ، منشورات كلية الآداب – جامعة محمد الخامس ، الرباط ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ ، ص ٤٠٣.

مُكَاتَبَةً، و هم : عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي، و محمد بن إبراهيم الأنصاري التلمساني، و أما الثالث فلم تذكر المصادر اسمه سوى أنها تنسبه إلى سبتة المغربية .(١)

و يذكر ابن كثير رحمه الله مغربيَّيْن آخرين كانا من الملازمين لشيخ الإسلام، أما الأول فسماه بالشيخ علي المغربي، فقال عنه :" وفي يوم السبت ثالث رجب صُلِّيَ على الشيخ علي المغربي، أحد أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية بالجامع الأفرمي بسفح جبل قاسيون، ودفن بالسفح رحمه الله، و كانت له عبادة و زهادة وتقشُّف و ورع ." (٢)، و قال عن الثاني :" و في هذا اليوم توفي الشيخ عبد الله بن رشيق المغربي، كاتِبُ مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية، كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه على الشيخ استخرجه أبو عبد الله هذا، و كان سريع الكتابة، لا بأس به، دَيِّناً عابدا كثير التلاوة، حسن الصلاة، له عيال وعليه ديون، رحمه الله و غفر له، آمين . " (٣)

فقد كان المغاربة حريصين أشد الحرص على وصل المغرب بالمشرق حتى يواكب مستجداته العلمية، بملازمة علمائه ومشايخه

(١) ورقات من حضارة بني مرين ص ٤٠٣ – ٤٠٤.

(٢) البداية و النهاية ، اعتناء و توثيق عبد الرحمن اللاذقاني و محمد غازي بيضون ، دار المعرفة – بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٧ ، الجزء ١٣ الصفحة : ٦٥٢ . و قد ذكر هذا عند حديثه رحمه الله عن أحداث عام ٧٤٩ هـ.

(٣) نفسه ٦٥٤/١٣.

والرواية عنهم و التعريف بهم و بمؤلفاتهم و لمَّا يجفُّ حِبْرُها بعد .

٧ – مساهمة رحلات الحج في تنمية المناهج التربوية والتعليمية في الغرب الإسلامي :

و هناك مظهر آخر من مظاهر فضل المشرق على المغرب ساهمت فيه رحلات الحج بدور محوري، و هو الجانب التربوي التعليمي، أي ما يتعلق بطرق التدريس و مناهجه [١]، فقد " كان الهدف من السعي إلى لقاء العلماء و الاتصال بهم أحيانا، اكتساب مناهج علمية جديدة، و طرق و أساليب متطورة في التعليم و التأليف، و غير ذلك ." [٢]

فالمغاربة و الأندلسيون كانوا يريدون أن يستفيدوا حتى من مناهج التدريس و التعليم المشرقية، بعدما استفادوا من علومه وعلمائه و مؤلفاته، لكي تكتمل الاستفادة على الوجه الأكمل . و هذا ما يُظْهِر لنا بوضوح ذلك النشاط الذي كان يمارسه الرحالون، و هم يحملون معهم هموم وطنهم، آملين أن تكون له مكانته في ركب الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب أخيه المشرق، لتكون بذلك رحلات الحج مرآة ينعكس عليها مدى التقارب العلمي بين المغرب وما يليه من جهة الشرق في كافة المجالات، بل إنها " تحدد أثر هذا

---

(١) عقد ابن خلدون فصلا لطيفا للمقارنة بين مناهج التعليم في المراحل الأولى بين المغاربة و الأندلسيين والمشارقة ، فليراجع في المقدمة ، ص ٥٣٨ – ٥٣٩.

(٢) أدب الرحلة بالمغرب ٩٦/١.

الامتداد المشرقي في نشاط المغاربة التأليفي و التعليمي ." [١] وهذا كان يدفع بمناهج التربية و التعليم بالغرب الإسلامي دائما نحو التجديد ، سواء في طرق التدريس و التعليم في مختلف مراحلهما ، أو في تأليف البرامج و المقررات و المصنفات التي كانت " تخضع للتجديد المستمر و التغيير المتعاقب، و تمثل المحاولة المستمرة للبحث عن التأليف الأحسن ." [٢]

٨ – خلاصة و استنتاج :

و على العموم فإن المغاربة و الأندلسيين قد استفادوا من خلال رحلات الحج أيما استفادة من المشرق، و على كل الأصعدة، سواء فيما درسوه هناك و تلقَّوه مباشرة من أفواه شيوخهم، أو فيما جلبوه معهم من كتب و مصادر كان لها حضورها المتميز في الدراسات المغربية و الأندلسية لآماد طويلة، أو فيما يتعلق بالمناهج التربوية والتعليمية التي كانوا يخْضِعُون على ضوئها مناهِجَهم للتطور والتجديد المستمرين .

كل هذا أتى أُكله و ثماره في الغرب الإسلامي على نحو جعل من القرن السابع و الثامن أزهى مراحل الحضارة العربية الإسلامية في المغرب و الأندلس . ففي عدوة المغرب بلغت العلوم و الآداب على عهد بني مرين " إلى قمة المجد و الكمال، و كان عَصْرَهَا الذهبيَّ في

(١) فهارس علماء المغرب ص ٥٩٥.

(٢) نفسه ص ٤٣٠.

المغرب، و النابغون في هذا العصر كانوا أساتذة مَنْ بعدَهُم، بل طبقت شهرتهم العالم العربي وما تزال ذكراهم فيه حيَّة إلى الآن ." (١)، وهذا ما جعل دولة بني مرين دولةً " كانت في خدمة العلم، بحيث انصرفت الهمم إلى طلبه، و اشتد التنافس في تحصيله، فكثر العلماء نتيجة لذلك، و فعلا فإن ما عمله المرينيون في هذا الصدد يجعلهم حريِّين بلقب دولة العلم الذي يطلقه عليهم بعض المؤرخين، و لقد بذُّوا بمآثرهم العلمية جميع مَنْ تقدم أو تأخر من ملوك المغرب ." (٢)

و أما في الأندلس، فقد وصلت الحضارة الإسلامية إلى القمة أيضا، لأن الاستقرار السياسي كان متبادلا بين المغرب المريني والأندلس النَّصْرِيَّةِ، فقد بلغت العلوم أَوْجَهَا في مختلف التخصصات، لأن ظروف تلقي العلم و الرحلة في طلبه، ثم تدريسه و ترويجه بين الناس، كانت ظروفا ملائمة . لذلك ضرب العلماء في الأندلس بسهامهم في كل الفنون و العلوم، فقد " استمرت العلوم الشرعية والإسلامية بعامة على مستواها الرفيع، و ظهر عدد كبير من العلماء الذين تابعوا أمور الفقه و التفسير و الحديث و الأصول، و خرَّجت علوم

(١) النبوغ المغربي ، مرجع سابق ، الجزء ٢٠٥/١.

(٢) نفسه ١٩٥/١ ، و راجع بتفصيل الحياة الفكرية و الأدبية في عهد بني مرين ، في المقدمة التي قدمنا بها في تحقيقنا لديوان إبراهيم ابن الحاج النميري الغرناطي ، في الجزء الأول ، الصفحة ٣١ و ما بعدها ، و راجع أيضا بتفصيل كتاب شيخنا الدكتور محمد بنشقرون باللغة الفرنسية ، عنوانه مترجما : " الحياة الفكرية المغربية في عهد المرينيين و الوطاسيين " الصادر عن مطبعة محمد الخامس – فاس ، رمضان ١٣٩٤ – أكتوبر١٩٧٤ .و راجع منه بشكل خاص الفصل الثالث ، و عنوانه :" الخصائص العامة للحياة الفكرية " ، في الصفحة ٤٣١ و ما بعدها.

العربية وآدابها رجالا مازالت شهرتهم متصلة إلى اليوم،أما الشعر فبقيت له مكانة عند أصحاب الشأن – على الرغم من اضطراب الأمور العامة – و بقيت في الشعر الأندلسي روح الشعر الرفيع و أصالة الشعراء المتمكنين، و ظهر رجال في علوم الطب و الهندسة و النبات والصيدلة، كما نبغ جغرافيون و رحالة و مؤرخون عرفهم المشرق نفسُه و قدَّرهم منازلهم من التكريم، ولعل هذا الاستمرار الحضاري ناشئ عن أن المصاب الأندلسي الفادح في خسران الأرض وانحسار السيادة لم يصل إلى استهلاك الحضارة و انحدار المدَنيَّة، كما أن المستوى الذي وصلوا إليه حتى في عصر الموحدين لم يكن حضارة قشْرِية زائفة تضيع عند أول هزّة أو أدنى اختبار ." (١)

و عموما فإن لرحلات الحج دورا هاما للغاية في إيصال الحركة العلمية إلى ما وصلت إليه في الغرب الإسلامي في القرون التي تنتمي إليها هذه النماذج التي ركزت عليها في هذه المداخلة، و بخاصة في القرنين السابع و الثامن، ليتضح لنا من خلالها " مدى متانة الروابط، و عمق الصلات التي كانت تجمع بين شقّي العروبة غربا

---

(١) أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، د.محمد رضوان الداية ،مكتبة سعد الدين ،الطبعة الثانية ١٩٨٦ ، ص ٣٠ . و راجع الدراسة التي نشرناها تحت عنوان :" الحياة السياسية و الأدبية في عهد بني الأحمر " ، في مجلة " الفيصل " السعودية ، العدد ٢٩٤ ، ذو الحجة ١٤٢١ هـ مارس ٢٠٠١ ، كما خصصت الباحثة الإسبانية " أريي راشيل " كتابا لها للحديث عن حضارة الأندلس في عهد بني الأحمر ، باللغة الفرنسية ، عنوانه مترجما : " إسبانيا المسلمة في عهد النصريين : ١٢٣٢ – ١٤٩٢ ،" طبعة باريس ١٩٧٣ .و راجع منه بشكل خاص الفصل الثامن ، و عنوانه " الحياة الدينية و الفنية : إزدهار الفنون" ص ٤١٧ و ما بعدها.

وشــرقا ، و الــتي جعلــت مــن أرض الحجــاز المباركــة مهبطــا لأفئــدتها ، وملتقى لعلمائها ، و منزلا روحيا لأبنائها على مرِّ العصور ." [١]

***

(١) الرحلات من المغرب و إليه عبر التاريخ ص ٦٦.